الفصل الثالث

صورة بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية (القدسيات)

بعد الفتح القدسي

(٥٨٤ ـ ٦٤٨ هـ)

صدى محاولات الفرنج استرداد بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية :

أحدث تحرير بيت المقدسم الاحتلال الصليبي، في سنة ٥٨٣ هـ، صدى كبيراً لدى الغزاة، وكانت الصرخة لإنقاذه «مدوية يتجاوب صداها في العالم النصراني» كما يقول لامب[١]. وقامت الحملة الصليبية الثالثة لاحتلاله ثانية. وقاد جيوشهم ريتشارد قلب الأسد، ملك انكلترا، وفيليب أغطس، ملك فرنسا، وفردريك بربروسا، امبراطور ألمانيا[٢].

يذكر ابن الأثير، ويتابعه ابن واصل الحموي، أن «فردريك بربروسا» أرسل إلى «قلج أرسلان» السلطان السلجوقي، قائلاً: «ما قصدُنا بلادك، وإنما قصدُنا البيت المقدس»[٣]. وكان الامبراطور فردريك قد عمل على استثارة الفرنج للثأر لكنيستهم بالقدس. كما يقول العماد الأصفهاني[٤]. وأرسل إلى صلاح الدين رسالة مطالباً ببيت المقدس، وقال في رسالته: «خذ الموعظة من فرعون، وسلّم

---

(١) شعلة الإسلام/ ٣٢٣، وانظر: الحركة الصليبية ٢/٨١٢، ٨١٣، ٨١٤.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ١١٥، ١٢٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٥٧، ١٥٨، ١٦١، الكامل ١٢/٤٨، ٦٣، الفتح القدسي/ ٣٣٠، ٣٨٩، ٤٧٤، ٤٨٤، الروضتين ٢/١٥٠، ١٥١، ١٥٤، ١٨٢، ١٨٣، مفرج الكروب ٢/٢٨٨، ٣٢٢، ٣٣٣، ٣٤٩، المختصر ٣/٧٦، ٧٨، تتمة المختصر ٢/١٥٢، ١٥٤، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، البداية والنهاية ١٢/٣٣٤، ٣٤٦، شفاء القلوب/ ١٦٠، ١٦٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٢٩ ـ ٤٣، ٧٥ ـ ٧٩، ٩٥ ـ ١٠٩، شعلة الإسلام/ ٣٩٦.

(٣) انظر: الكامل ١٢/١٨، ٤٩، مفرج الكروب ٢/٣١٨، الفتح القدسي/ ٣٣٠، الروضتين ٢/١٥٦، شفاء القلوب/ ١٦٣.

(٤) كتاب الروضتين ٢/١٥١.

بيت المقـدس». ورد عليه السلطان صلاح الدين بقوله: «لم يبق أمامهم من شيء إلا أن نعمل دائبين للاستيلاء على صور، وطرابلس، وأنطاكية، وعرض عليهم تسليمها، مقابل أن يعيد إليهم صليب الصلبوت، ويطلق سراح أسراهم، ويسمح لكاهن من كهنتهم «بتأدية الطقوس الدينية في كنيسة القيامة»، ويسمح لرهبانهم بالعودة إلى الأديرة التي تركوها قبل الفتح الإسلامي الأول. ويسمح بزيارة كنيسة القيامة بأمان. ولكن فردريك رفض ذلك»[1].

كان البـابـا «آنوسنْت الثالث» قد أعلن عن «وجوب تخليص مدينة بيت المقدس، واستردادها. وكانت هتافات الناس تلح على ضرورة الاستيلاء على الأرض المقدسة» كما يقول لامب. وكان هذا البابا يرى «أن فتح بيت المقدس يجب أن يكون دعامة حكمه»[2].

ولمـا تمكن الفـرنج من احتلال عكا[3]، دارت مفاوضات بين المسلمين والفرنج، فطلبوا إعادة مملكة بيت المقدس، وصليب الصلبوت، مقابل السماح بخـروج المسلمين، وخروج حاميتها[4]. وساءت أحوال المسلمين، فاستطاع الصليبيون الاستيلاء على حيفـا، وقيسـارية، وعـادت المفـاوضات ثانية بين الـطرفين. وطـالب ريتشـارد بمـا طالب به في المفـاوضات السابقة، فرفض المسلمـون[5] وخـرب صلاح الـدين عسقـلان، والـرملة، واللد، وأبـراجهـا وتحصيناتها حتى لا يستفيد منها العدو. ثم توجه إلى مدينة بيت المقدس للدفاع عنهـا، فقـواهـا، وحصنهـا، وعمـر سورهـا[6]. وقصد ريتشارد بيت المقدس

---

(١) شعلة الإسلام/ ١٤٦. (٢) المصدر نفسه/ ٣٩٦.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ١٠٣ ـ ١٧٥، الفتح القدسي/ ٢٩٦، الكامل ١٢/٣٢ ـ ٦٨، الروضتين ٢/١٨٩، المختصر ٣/٧٦ ـ ٨٣، مفرج الكروب ٢/٢٩١ ـ ٣٦٤، النجوم الزاهرة ٦/١١٢، البداية والنهاية ١٢/٣٣٦، ٣٤٥. دول الإسلام/ ٩٧ـ٧٩٩ شفاء القلوب/ ٦٠ـ١٧١، السلوك ج ١ ق ١/١٠٥، الأنس الجليل ١/٣٣٦، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٥٤ ـ ٧١، شعلة الإسلام/ ١٥٥ ـ ٢٢٥.

(٤) انظر: الفتح القدسي/ ٢٨١، البداية والنهاية ١٢/٣٤٤، ٣٤٥.

(٥) انظر: النوادر السلطانية/ ١٨٢، شفاء القلوب/ ١٧٣.

(٦) انظر: النوادر السلطانية/ ١٨٦ ـ ١٨٩، الفتح القدسي/ ٥٥٠ ـ ٥٥٢، ٥٦٥، الروضتين ٢/١٩١، ١٩٢، =

لاحتلاله، ولكنه فشل، وعاد خائباً. وعادت المفاوضات بين الطرفين، وأصر الصليبيون على إعادة مملكة بيت المقدس كما كانت قبل تحريرها في سنة ٥٨٣ هـ. ويبدو ذلك جلياً في رسالة ريتشارد إلى صلاح الدين. يقول: إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد، وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وتلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وليس هناك حديث سوى القدس، والصليب، والبلاد. «والقدس متعبدنا، ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا إلا واحد، وأما البلاد، فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا، ونصطلح، ونستريح من هذا العناء الدائم»[1]. ورفض صلاح الدين ذلك، قائلاً: «القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا، ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر التلفظ بذلك بين المسلمين. وأما البلاد، فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها. . . ، وأما الصليب، فهلاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها»[2].

وحاول ريتشارد احتلال بيت المقدس مرة أخرى، ولكن دون جدوى، نظراً لاستعداد المسلمين، وتحصينهم المدينة، ومهاجمتهم عدوهم. ويصور العماد الأصفهاني استعدادات المسلمين، ويذكر أن صلاح الدين فرق الأبراج والأبدان على الأمراء والأجناد، وذوي القوة والاستعداد[3]. ويصور ابن شداد حث صلاح الدين على الجهاد. يقول: «. . . ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم

= ١٩٦، مفرج الكروب ٢/٣٦٩ - ٣٧١، الكامل ١٢/٦٩ - ٧٢، ٧٤، ٨٦، المختصر ٣/٧٩، ٨٠، ٨٣، تتمة المختصر ٢/١٥٦، شفاء القلوب/ ١٧٢، ١٧٣، دول الإسلام/ ٩٩، السلوك ج ١ ق ١/١٠٥ - ١٠٩، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيمان ٣/١١٤ - ١١٧.

(١) انظر: النوادر السلطانية/ ١٩٤، مفرج الكروب ٢/٣٧٢ - ٣٧٣، الروضتين ٢/١٩٣، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيمان ٣/١١٥، شعلة الإسلام/ ٢٤٠.

(٢) النوادر السلطانية/ ٣١٥، الروضتين ٢/١٩٣.

(٣) الفتح القدسي/ ٥٦٥، ٥٩٢، ٦١١، مفرج الكروب ٢/٣٧٥، ٣٨٠، كتاب الروضتين ٢/١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٧١.

على الجهاد، فذكرت ما يسر الله من ذلك. وكان مما قلته أن النبي، ﷺ، لما اشتد به الأمر، بايعه الصحابة، رضوان الله عليهم، على الموت في لقاء العدو، ونحن أولى من تأسى به، ﷺ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة، والتحالف على الموت[1]. وحث صلاح الدين نفسه جند الإسلام على الحفاظ على المسلمين وبلادهم، كما يبدو في قوله: «... وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم، والعياذ بالله، طوى البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا...، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم»[2].

اختلف الصليبيون في التقدم إلى بيت المقدس[3]. واختلف المسلمون، وقالوا إنهم يخشون من محاصرتهم فيه كما حوصروا في عكا. وأنقذ المسلمين مما كانوا فيه من خلاف، اختلافُ الصليبيين حول التقدم إلى بيت المقدس، وقرارهم الانسحاب[4].

وتجددت المفاوضات بين الطرفين، وترددت الرسل. وطلب ملك الانكليز أن يعيد صلاح الذين لهم عسقلان، ويهب لهم كنيسة بيت المقدس، وأن يمكن النصارى من زيارتها وحجها بلا شيء، ولكنه امتنع من إعادة عسقلان. واستمرت المفاوضات، وأرسل ملك الانكليز رسالة إلى السلطان صلاح الدين حول مقاسمة البلاد. وانتهت المفاوضات بأن تكون الصخرة والقلعة للمسلمين، والباقي مناصفة، وكان صلح الرملة، في يوم الثلاثاء، الحادي

---

(١) النوادر السلطانية/ ٢٦٦، كتاب الروضتين ٢/ ١٩٨، البداية والنهاية ١٢/ ٤٣٨.

(٢) النوادر السلطانية/ ٢١٦، الروضتين ٢/ ١٩٨، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٧١، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٨، ٣٤٩.

(٣) انظر: النوادر السلطانية/ ٢١٦ ـ ٢١٨، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١١٧، ١١٨، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/ ١١٩ ـ ١٢٢.

(٤) النوادر السلطانية/ ١٦٨، ٣٥٦، الفتح القدسي/ ٣٠١، ٣٠٣، ٣١٧، ٣٢٣، ٣٢٤، مفرج الكروب ٢/ ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٠، ٤٠١، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١١٥، ١٧١، ١٧٣، الروضتين ٢/ ١٩٨، ١٩٩، شفاء القلوب/ ١٧٥، السلوك ج ١ ق ١/ ١٠٩، تاريخ الحروب الصليبية ٣/ ١٣٠ ـ =

والعشرين من شعبان، سنة ٥٨٨ هـ، وضمن الصلح للصليبيين حرية الحج الى بيت المقدس[١].

ويصور العماد الأصفهاني، في كتاب كتبه إلى ديوان الخلافة، كيف أفضى الأمر إلى عقد الهدنة، ويبين أن الأعداء كانوا قد أجمعوا على «قصد بيت المقدس»، ولكنهم «عرفوا أن المرمى بعيد المرام، وأنهم لا يستطيعون مقاومة عسكر الإسلام، فنكصوا على أعقابهم». ثم استقرت المهادنة، ووضعت الحرب أوزارها.

ويدعو العماد إلى عدم الاغترار بعقد الهدنة. وكان السلطان صلاح الدين قد عزم على الحج، وطلبوا منه ألا يترك البلاد في ذلك الوقت. يقول العماد: «... هذه البلاد إذا تركتها على ما بها من الشعث، لم تبرم مرر حبلها المنتكث. وهذه المعاقل التي في الثغور، حفظها من أهم الأمور، ولا يغتر بعقد الهدنة، فإن القوم على ترقب المكنة، والغدر دأبهم، وملء البغي إهابهم»[٢].

★★★

ويتردد صدى هذه الأحداث في الأدب العربي، ولكنه صدى باهت في الشعر، جلي في النثر، فقد قلت الأشعار في هذا المجال، واكتفت بالحديث عن قصد الفرنج بيت المقدس، والهدنة، بينما تتحدث رسائل العماد الأصفهاني، والقاضي الفاضل عن هذه الأحداث، وتصورها، وتصور صداها في النفوس، وتصور المواقف، كما تصور الأحاسيس والمشاعر.

يذكر أبوشامة المقدسي أن الشاعر الرشيد بن بدر النابلسي، قال أبياتاً تدور حول «قصد الفرنج للسلطان بالقدس»، وفيها ينعى على الفرنج الذين لم يعتبروا

= ١٣٣، شعلة الإسلام/ ٢٤٥، ٢٤٦.

(١) انظر: النوادر السلطانية/ ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٣٥، مفرج الكروب ٢/٤٠٥، ٤٠٦، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٧٤، ١٧٥، الروضتين ٢/٢٩٤، تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ٢/٧٢ - ٧٥، السلوك ج ١ ق ١/١٠٩، ١١٠، الأنس الجليل ١/٣٨٩.

(٢) الفتح القدسي/ ٦٠٦ - ٦٠٨، ٦١١، الروضتين ٢/٢٠٧.

بما فعله بهم المسلمون، ويعرض بهم، ويصفهم بالذل، والجهل، والسفه، كما يدعو السلطان صلاح الدين للحفاظ على بيت المقدس، يقول[1]:

ويحَ الفـرنجةِ بل ويلَ امهم أو ما ... فيهـم لبيبٌ على العـلاتِ يعتبـرُ
فكمْ نثـرتهمْ ضربـا إذا انتـظمـوا ... وكـمْ نَظمتـهـمْ طعنـاً إذا انتثـروا
كَمْ قد سَقَـيْتـهُـمْ ذُلاً فلا عَجَـبٌ ... إنْ عَرْبـدوا سَفَهـاً فالقومُ قد سكروا
إن يممـوك فلا بدع لجـهـلهـمُ ... تَسعى إلى الأسْدِ في غاباتها الحُمُرُ
زاروا نُمـوراً ولا تُغـنـى وقـاحتهمْ ... إذا أُسـودُك في أبـطالـهـم زأروا
فحامِ عن حَوْطةِ البيت المقدَّس لا ... خوف وحاشاك من خوفٍ ولا ضررُ
هو الشـريفُ وقـد ناداك معتصماً ... فمـا على مجده من بعدها حَذَرُ
وسـوف تستغفـرُ الأيامُ هَفْـوتهـا ... وتحصـدُ الفئـة الأوغـاد ما بَذروا

ويصـور الشاعر نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور الهدنة التي عقـدت بين السلطان صلاح الـدين، وبين ملك الانكليز، فيعـرض بالملك الانكليزي، ويهـدده، وينـذره، ويبين أن عليه أن يكـون قصيّاً عن البيت المقدس، ويصفهم بالغدر، فلا يثق المسلمون بأنه قد تم صلح حقيقي بينهم وبين أعدائهم الغزاة، يقول[2]:

القُـدس ما فيه لسـرجـك مَطْمـعٌ ... كلاّ ولا نور الإلـه بمـنـطفـي
والمسجـدُ الأقصى فَعَنْـهُ تَقصَّ من ... وَقْـع الـدبـابيس الأليمـةِ تعـرفِ
واستفتِ نفسَك فهي أخبثُ ناصحٍ ... واتْـرُكْ متـابعـةَ اللجـاجَ المتلفِ
قد قلتُ لمـا قيلَ صلحٌ قد جَرَى ... هذا حديثُ مُخـرِّفٍ ومُـحـرِّفِ
سَلَفٌ تَولّى السيفُ عَقـد شُروطـه ... أحْـبـبْ به من مُسلمٍ ومُسلِّفِ
ظَنّـوه سِلّمـاً وهـو في أرواحـهـم ... سِلْمٌ إلـى أجـلٍ لهـم متـخـلفِ

ويشيد الشاعر ابن الساعاتي بالسلطان صلاح الدين، ويصوره منقذاً للبيت المقدس، ولولاه لكان قد وقع ثانية في براثن الاحتلال، كما يبدو في قوله[3]:

(١) الروضتين ٢/١٩٤.
(٢) نفسه ٢/٢٠٤.
(٣) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤١١، مفرج الكروب ٢/٤٠٤، كتاب الروضتين ٢/٢٠٢.

لولاك أمَّ البيتَ غيرَ مدافع وأسالَ سَيْلَ نداه في بَطحائه
ويكت جفون القدس ثانية دماً لترنم الناقوس في أفنائه

★★★

ويصور القاضي الفاضل، في رسالته التي كتبها، على لسان صلاح الدين، إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن، يستنجد به أثناء حصار الفرنج عكا، في الثامن والعشرين من شعبان سنة ٥٨٦ هـ، يصور قدوم ملك الألمان فردريك بربروسا في جيوش جرارة، وأموال وفيرة، كما يصور مصير فردريك، ويشير في رسالته إلى جهاد صلاح الدين، وفتح بيت المقدس، وهو منة الله العظمى على الإسلام[1].

وفي رسالة ثانية كتبها إلى ملك المغرب، في شعبان من سنة ٥٨٦ هـ أيضاً، يوضح القاضي الفاضل أسباب ما حل بالمسلمين وبلادهم، في أواخر عهد صلاح الدين. ويتمثل ذلك في قدوم آلاف من جيوش الفرنج، للعمل على استرداد بيت المقدس، بل احتلاله ثانية، يقول مصوراً استنجاد الفرنج بالشام بالفرنج في الغرب: «فأجابوهم رجالاً وفرسانا، وشيباً وشبانا، وزرافات ووحدانا، وبراً وبحراً، ومركباً وظهراً، وركبوا إليهم سهلاً ووعراً، وبذلوا ماعوناً وذخرا، . . . خرج كلٌّ يلبي دعوة بطركه . . . ، وخرجت لهم عدة ملوك»[2]. ويصور الكاتب الصراع في العقيدة بين المسلمين والصليبيين، ثم يصور الإمدادات التي كانت تصل إلى العدو فيقول: وكانت «لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قُتل، وتخلف من الزاد ما أكل، فهم في كل يوم في حصول زيادة . . . ، أعطاهم البحر ما منعهم البر»، ويصور مراكبهم، وحصارهم عكا[3].

ويتحدث القاضي الفاضل، في كتاب من الكتب التي كتبها إلى السلطان

(١) كتاب الروضتين ٢/١٧٠، ١٧٢، مفرج الكروب ٢/٥٠١، ٥٠٢.

(٢) انظر: الروضتين ٢/١٧٢، مفرج الكروب ٢/٥٠٧.

(٣) كتاب الروضتين ٢/١٧٢، مفرج الكروب ٢/٥٠٧ ـ ٥٠٩.

صلاح الدين، أثناء محاصرة عكا، عن فتح بيت المقدس، ويبدي تخوفه على الصخرة والأقصى، ويشير إلى «عدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة، والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتهما، وبفقدهما في أشتية القدس العظيمة الجليلة المثلجة، لا يؤمن سقوطهما، وافتضاح القدرة في العجز عن إعادتهما»[1].

ويتحدث العماد الأصفهاني عن توجه السلطان صلاح الدين إلى بيت المقدس، في رمضان سنة ٥٨٧ هـ، بعد الهزيمة التي حلت بالمسلمين في عكا. وقد رتب مصالح القدس، وبقي فيها أياماً رحل بعدها[2]. ثم عاد إليها في الثالث والعشرين من ذي القعدة، من السنة ذاتها، وكان معه العماد الأصفهاني نفسه، والقاضي بهاء الدين بن شداد. وشرع في تحصينها، وعمارتها، وحفر خندقها، وتجديد سورها وأبراجها. ويصورها العماد وقد أصبحت «من أحسن المدن، وأحصنها، وأحكمها»، وذلك للحفاظ عليها. يقول: «ورتبنا بناء سورها على جوانب أودية وسفوح، متى تم لم يبق فيها لطمع من طموح. وهذا أمر الله وفي طاعته، ولحفظ بيته، ولنصرة دينه، ولإعلاء كلمته، ولحماية أمته». وبذلك يبقى بيت المقدس مع الإسلام على مر الدهور[3].

ويصور العماد ما أحاط بالمدينة المقدسة من أخطار تتمثل في عودة الصليبيين الغزاة إليها، فيقول: «... هذا الكفر قد أناخ بكلكله، وحفل بجحفله، وبرز إلى الإسلام بكليته، وعراه ببليته، وقامت قيامته لقيامته». وقد أغذ الغزاة السير لقصده وورده. ويقرن العماد حديثه هذا مع الحديث عن مكانة بيت المقدس وقدسيته، ويدعو إلى «استدعاء ذوي الحمية من الأقاصي والأداني»، ويبين أنهم إن لم ينهضوا في الربيع القابل، من سنة ٥٨٨ هـ، صعب الأمر، واحتدم الخطب[4].

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٦٦.
(٢) الفتح القدسي/ ٥٥١، ٥٥٢.
(٣) انظر: الفتح القدسي/ ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٥، ٥٧٨، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣.
(٤) الفتح القدسي/ ٥٧٨.

ويصور البيت المقدس «يُقدَّسُ ويُسبحُ»، ويُعرب عن فضيلة منجده ويفصح، فقد وصل الرجال الواصلون بالنُجح رجاءه، الحامون بحفر خندقه أرجاءه». وكان قد وصل الحجارون، والجصاصون من الموصل، للعمل في الخندق، ويضيف قائلاً: «وهذه لا شك مقدمة لما وراءها من نتائج النجدات». ويصور العدو منتظراً نجدات بحرية[1]. ويتحدث العماد عن ولاية بيت المقدس، في رسالته هذه. كما يتحدث عن صدور منشور بالولاية لحسام الدين النجمي. ويستهل العماد ذلك المنشور بالتحميد، والصلاة على الرسول، وآله، وأصحابه، ثم يتحدث عن تطهير المسجد الأقصى، كما يبدو في قوله مصوراً الصراع في العقيدة: «الحمد لله الذي أقصى من المسجد الأقصى من داناه من الكفر ودنسه، ونزه البيت المقدس من رجس أعدائه المشركين بأيدي أوليائه الموحدين، وطهره، وقدسه، وأنطق محرابه بتلاوة الذكر المبين». ويتحدث عن الفتح القدسي وآثاره. ويبين ما ينبغي على الوالي الجديد عمله، من سداد لثغرها، ورعاية لأمورها، وعمارة لسورها، وإسكان لمواطنها، «وتعميرها بالعُدة، والعِدة، والشدة، والقوة، والبأس»[2]. ثم يصورالنجدة التي قدمت من مصر «نجدة لأهل القدس على الكفر وأهله». ولكن هذه النجدة نُكبت، فقد فاجأها العدو «والصبح لم يُبد إضاءة، والخيط الأبيض من الخيط الأسود، لم يتبين» كما يقول العماد. وكانت تلك النجدة قد نامت حتى الصباح، بعد وصولهم إلى مكان ظنوا أنهم قد جازوا «مظان المخافة»[3].

ويصور العماد تلك الحالة التي كان المسلمون عليها، في كتاب كتبه، على لسان صلاح الدين، إلى الخليفة في بغداد، فيبين أنها تتمثل في أن «مرابطة أهل الكفر مستمرة»، وأن الحرب سجال بين الطرفين[4].

★★★

(١) الفتح القدسي/ ٥٦٥، ٥٧٩.

(٢) نفسه/ ٥٨٠.

(٣) نفسه/ ٥٩٣، ٥٩٤. وانظر: ٥٩٥، ٥٩٦.

(٤) نفسه/ ٦٠١.

أصبحت مدينة بيت المقدس مجال صراع بين أبناء صلاح الدين، خاصة بين الأفضل، والعزيز، من أبنائه، وكأن المسلمين قد تبدلوا بحرب الفرنج حرب بعضهم بعضا، كما يقول الذهبي[1]. ذُكر أن الملك الأفضل بن صلاح الدين، ملك «دمشق، والساحل، والبيت المقدس»، وغيرها من الأعمال، بعد موت والده في سنة ٥٨٩ هـ. وفي سنة ٥٩٠ هـ، حاصر الملك العزيز بن صلاح الدين دمشق، فاستنجد الأفضل بعمه الملك العادل، وانتهى الأمر بعقد الصلح. و«استقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز»، وعاد العزيز إلى مصر[2]. وذُكر قبل ذلك، أنه كان قد أُشير على الملك الأفضل بن صلاح الدين، بإخلاء بيت المقدس، لنواب الملك العزيز، «حذراً من تكاليفه وأثقاله»، وهو يحتاج إلى أموال، ورجال، ونواب، وكلفة عظيمة»، فاستجاب لذلك، وفوض القدس وعمله إلى العزيز. ولكنه رجع عن ذلك بتحريض من نوابه، خوفاً من محاسبة العزيز لهم، لتعديهم على الأوقاف لعمارة القدس ومصالحه[3].

خشي الملك العزيز من غدر الفرنج، وفسخ الهدنة التي عقدوها مع والده، فجهز «العساكر إلى البيت المقدس لكل ما في المكنة»، وأرسل الغلات من مصر[4].

وجرت خلافات في البيت الأيوبي، وانتهى الأمر بالصلح، بتدخل القاضي الفاضل، واستقر الأمر على أن يكون بيت المقدس، وجميع البلاد بفلسطين، وطبرية، والأردن للأفضل[5].

---

(١) دول الإسلام/ ١٠٥.

(٢) الكامل ١٢/١٦، ١٠٩، ١١٠، كتاب الروضتين ٢/٢٢٨، ٢٢٩، الذيل على الروضتين/ ٦، البداية والنهاية ١٣/٩.

(٣) العتبى والعقبى (عن الروضتين) ٢/٢٢٨، مفرج الكروب ٢/١٤، ١٥، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢١، ٢٢٢، النجوم الزاهرة ٦/١٢٠، السلوك ج ١ ق ١/١١٥، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/١٢٤.

(٤) الفتح القدسي/ ٦٣٠، ٦٣١، العتبى والعقبى: انظر: الروضتين ٢/٢٢٥، السلوك ج ١ ق ١/١١٥.

(٥) الكامل ١٢/١١٨، ١١٩، ١٢٠، العتبى والعقبى: انظر: الروضتين ٢/٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤، الذيل على =

وفي سنة ٥٩٣ هـ، «انقضت مدة هدنة الفرنج التي عقدوها مع الملك الناصر»، فخرجوا، والتقوا بالملك العادل، فهزمهم، وكتبوا إلى ملك الألمان في صقلية، وعملوا على استثارته، ودعوه إلى استرداد بيت المقدس[١].

واستمر الصراع على بيت المقدس، بين أبناء البيت الأيوبي، إلى أن ملك المَلك العادل مصر، في سنة ٥٩٦ هـ، فأقطع دمشق، والأردن، وفلسطين، لولده الملك المعظم عيسى[٢].

كتب البابا آنوسنت إلى الملك العادل يحذره، ويطلب منه التنازل عن بيت المقدس[٣]. وتكررت محاولات الفرنج لاحتلال بيت المقدس ثانية، ففي سنة ٦٠٠ هـ، عزموا على «قصد البيت المقدس، واستنقاذه من المسلمين». وعمل العادل على منعهم من قصد بلاد الإسلام. وانتهى الأمر بالصلح بين الطرفين، في سنة ٦٠١ هـ، وتقررت الهدنة ثانية بين الملك العادل والفرنج، في سنة ٦٠٧ هـ[٤].

ومما يؤسف له أننا لا نجد صدى فعلياً لهذه الأحداث في الشعر العربي آنذاك، ولكن الصدى برز في النثر بجلاء، كما تقدم.

★★★

= الروضتين/ ٧، ١٤، ١٥، ٤٧، مفرج الكروب ٣/٥٢، ٥٤، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٢، مرآة الزمان ٨/٤٥٨، ٤٥٩، النجوم الزاهرة ٦/١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٤١، ١٤٢، البداية والنهاية ١٣/١١، ١٥، ١٧، شفاء القلوب/ ٢٤١، السلوك ج ١ ق ١/١٢٦.

(١) خطفة البارق وعطفة الشارق: انظر: الروضتين ٢/٢٢٣، شفاء القلوب/ ٢٣٦.

(٢) انظر: الكامل ١٢/١٢٥، ١٤٤، مفرج الكروب ٣/ ٧٠، ٧٦، مرآة الزمان ٨/٤٤٣، ٤٦١، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٢، النجوم الزاهرة ٦/١٤١، ٢٢٣، شفاء القلوب/ ٢٤٢، السلوك ج ١ ق ١/١٣٥، ١٣٦، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٩٧، تاريخ ابن الفرات م ٥ ج ١/٦٧، ٦٨.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٢٥٨.

(٤) الذيل على الروضتين/ ١٠، الكامل ١٢/١٢٦، ١٩٤، ١٩٥، مفرج الكروب ٣/١٥٩، ١٦٢، المختصر ٣/٩٣، ١٠٦، تاريخ ابن الفرات م ٥ ج ١/١٣، ١٤، ٢٠، ٢١، البداية والنهاية ١٣/٣٦، ٣٧، السلوك ج ١ ق ١/١٦٣، ١٦٤، خطط المقريزي ٢/٢٣٥، دول الإسلام/ ١٠٧، ١٠٨، شفاء القلوب/ =

صدى خراب بيت المقدس في سنة ٦١٦ هـ، في أدب الحروب الصليبية :

لم يزل البيت المقدس «ملحوظاً بالعمارة والتحصين، من عهد السلطان ـ صلاح الدين ـ رحمه الله، إلى سنة ست عشرة وستمائة، فإنه خُرب في المحرم منها[١].

يذكر ابن واصل الحموي، في حوادث سنة ٦١٤ هـ، أن الفرنج اجتمعوا في عكا، وعزموا على «قصد القدس الشريف، وانتزاعه من أيدي المسلمين، واسترداد كل ما أُخذ لهم من البلاد الساحلية». وكان جمعهم عظيماً، ولم يجتمع لهم بعكا مثله، منذ موت صلاح الدين[٢]. ويذكر الذهبي أن الفرنج أقبلوا «بفارسهم وراجلهم من البحار، وخرجوا إلى عين جالوت، ليأخذوا القدس»[٣].

وفي السنة ذاتها، سير الملك العادل ابنه الملك المعظم عيسى ليمنع الفرنج عن قصد بيت المقدس[٤]. وذكر أن الملك المعظم نزل على عقبة اللبن، بين نابلس والقدس، خوفاً على القدس[٥]. ولما دخل الفرنج دمياط، ورأى الملك العادل تخريب حصن الطور، نقل المعظم ما كان فيه من العدد والذخائر إلى القدس، وغيرها[٦].

= ٢١٤، الأنس الجليل ١/٤٠٠، ٤٠١، صلاح الدين ـ جب/ ٢٠٥، ٢٠٨.

(١) انظر: مرآة الزمان ٨/٦٠٢، ١٤/٢٧٢، الذيل على الروضتين/ ١١٦، النجوم الزاهرة ٦/٢٤٥، البداية والنهاية ١٣/٨٣، شفاء القلوب/ ٣٠٥، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٢٠٢، نهاية الأرب ٢٧/١٨.

(٢) مفرج الكروب ٣/٢٥٤، المختصر ٣/١١٧، تاريخ ابن الفرات م ٥ ج ١/٢١٩ ـ ٢٢٠، السلوك ج ١ ق ١/١٨٦.

(٣) دول الإسلام/ ١١٦.

(٤) الكامل ١٢/٣٢٢، مفرج الكروب ٣/٢٥٦، ٣٢٤، مرآة الزمان ٨/٣٣٨، المختصر ٣/١٢٢، تتمة المختصر ٢/٢٠٣، شفاء القلوب/ ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٨١، السلوك ١/١٨٦، ١٨٧، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٠، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٢٦٣.

(٥) مرآة الزمان ٨/٥٨٣، البداية والنهاية ١٣/٧٦.

(٦) الذيل على الروضتين/ ١٩، وانظر: مرآة الزمان ٨/٥٨٤، ٥٨٥، ١٤/٢٨٨، كنز الدرر (الدر المطلوب) =

وكان الفرنج قد تشاوروا حول ما يبدأون بقصده، فأشار قسم منهم بقصد مصر أولاً، وقالوا: «إن الملك الناصر صلاح الدين، إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولاً مصر، ونملكها، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس، وغيره من البلاد»[1]. وكانوا يرون أن الاستيلاء على مصر «هو الخطوة الأولى في الطريق إلى بيت المقدس»، وهو البداية المؤدية إليه، وأنه لا يمكن استرداد بيت المقدس إلا بعد مصر أولاً، وقبل كل شيء، وبهذا كانوا يرمون إلى تحطيم قوة المسلمين العسكرية قبل الزحف على بيت المقدس، وذلك بالاستيلاء على مصر أولاً، كما تقدم[2]. وبهذا يفقد المسلمون «أغنى إقليم لديهم، ولن يستطيعوا المحافظة على اسطولهم في شرق البحر المتوسط، ولن يكون بوسعهم الإبقاء على بيت المقدس في أيديهم زمناً طويلاً»[3]. قال أبو المظفر سبط بن الجوزي للملك الأشرف موسى بن الملك العادل: «المسلمون في ضائقة، وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية، ملكوا إلى حضرموت، وعفوا آثار مكة، والمدينة، والشام». فرحل الأشرف للجهاد ضد الفرنج في مصر[4]. وكان الفرنج قد عبروا النيل إلى بر دمياط في العشرين من ذي القعدة، سنة ٦١٥ هـ، وحاصروها، ثم دخلوها في السابع والعشرين من شعبان، سنة ٦١٦ هـ، وبذلك «أشرف الإسلام، وجميع أهله، وبلاده، على خطة خسف في شرق الأرض وغربها». أقبل التتار من الشرق، وأقبل الفرنج من الغرب. وعاد الملك المعظم عيسى من مصر، وخرّب البيت المقدس، وكان ذلك في أول المحرم، وقيل في سابعه[5]. وقيل إن الأمراء الأيوبيين اتفقوا على

= ١٩٥/٧، صلاح الدين ـ جب/ ٢١١، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢٦٦/٣.

(١) مفرج الكروب ٢٥٨/٣.

(٢) شعلة الإسلام/ ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٣، العدوان الصليبي على مصر/ ٢٧.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢٦٧/٣، الحركة الصليبية ٨٩٢/٢.

(٤) انظر: الذيل على الروضتين/ ١٠٨، ١١٥، ١٢٨، النجوم الزاهرة ٢٤٠/٦.

(٥) انظر: مرآة الزمان ٥٩٢/٨، ٥٩٣، ٦٠١، ٦٠٢، ٢٧٢/١٤، دول الإسلام/ ١١٧، ١١٩، الكامل ٣٢٠/١٢ ـ ٣٢٧، البداية والنهاية ٧٩/١٣، ٨٠، ٨٣، السلوك ج ١ ق ١٨٨/١، ١٨٩، ٢٠٤، شفاء =

خراب بيت المقدس، وقالوا: «قد خلا الشام من العساكر، فلو أخذه الفرنج، حكموا على الشام»، وقيل: لو أخذ الفرنج بيت المقدس، «لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق، وبلاد الشام، فالجأت الضرورة إلى إخرابه، فشرعوا في السور»[1].

وقيل: وكان الملك الكامل بن الملك العادل، سأل أخاه، الملك المعظم، «أن يعطيه القدس، وكوكب، والطور، ليعطيها للفرنج عوضاً عن دمياط، فأسرَّها في نفسه»، ثم خَرّب المعظم القدس حتى لا ينتفع بها الفرنج. وبقي بيت المقدس خراباً إلى أن توفي الملك المعظم سنة ٦٢٤ هـ[2].

ويعلل ابن واصل الحموي ما فعله الملك المعظم عيسى، بأنه خشي «أن تصل من البحر أمم عظيمة من الفرنج، إذا سمعوا بقوة أصحابهم، وتمكنهم من الديار المصرية، والملك الكامل مشغول، بمحاربة من بديار مصر من الفرنج، فيقصدون البيت المقدس، وهو عامر، فيملكونه، ولا يمكن بعد ذلك استنقاذه منهم»، في ظل مثل تلك الأوضاع، وقد هدمه الملك المعظم ما عدا برج داود[3]. وبذلك «أصبحت مدينة بيت المقدس مفتوحة لا يمكن الدفاع عنها، ما لم يتم تسويرها مرة ثانية»[4]. وذُكر أنه لم يبق في «الشام سوى عساكر قليلة، مما أدى إلى اتخاذ قرار بتجريد القدس من الوسائل الدفاعية، وبنقل جميع المخازن الحربية منها»[5].

= القلوب/٢٢٦، ٣٠٢، ٣٠٥، مفرج الكروب ٣/٢٥٨ ـ ٢٦١، ٤/١٥ ـ ٢٠، ٢٣ ـ ٢٤، ٣٢، ٣٣، الأعلاق الخطيرة/١٦١، المختصر ٣/١١٨، ١٢٠، ١٢٢، تتمة المختصر ٢/١٩٩ ـ ٢٠٠، ٢٠٣، التاريخ المنصوري/ ٧٥، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ٣٩١ ـ ٣٩٣، النجوم الزاهرة ٦/٢٢٢، ٢٣٨ ـ ٢٤٢، ٢٤٤، اتحاف الأخصا ـ ابن حجر الهيثمي/ ٢٣٤.

(١) مرآة الزمان ٨/٣٩٥، الذيل على الروضتين/ ١١٥، النجوم الزاهرة ٦/٢٤٤، الأعلاق الخطيرة/ ١٤٧.

(٢) الأعلاق الخطيرة/ ٢٢٣.

(٣) مفرج الكروب ٤/٣٢، مرآة الزمان ٨/٣٩٥، وانظر: المختصر ٣/١٢٢، تتمة المختصر ٢/٢٠٣، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٢٠٢، النجوم الزاهرة ٦/٢٤٥، السلوك ١/٢٠٤.

(٤) شعلة الإسلام/ ٤١١.

(٥) صلاح الدين ـ جب/ ٢١٣.

ويذكر ابن واصل أنه قد انتقل أكثر المقيمين في بيت المقدس، ولم يبق فيه إلا القليل من الناس. ونُقل ما كان فيه من آلات القتال. وعَظُم ذلك على المسلمين، «وتأسفوا عليه غاية الأسف»[1]!

وذُكر أن بيت المقدس كان قبل تخريبه «على أتم الأحوال من العمارة، وكثرة السكان». وكان لتخريبه أثر كبير في نفوس أهله، وفي نفوس المسلمين جميعاً، فقد ذُكر أنه وقعت ضجة مثل يوم القيامة، «وخرج النساء، والمخدرات، والبنات والشيوخ، والعجائز، والشبان، وقطعوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم، بحيث امتلأت الصخرة، ومحراب الأقصى، من الشعور. وخرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم، وما شكوا أن الفرنج تُصبحهم، وامتلأت بهم الطرقات فبعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق. . . ، ومات خلق عظيم من الجوع والعطش، وكانت نوبة لم يكن في الإسلام مثلها، كما يقول سبط ابن الجوزي، وأبوشامة المقدسي، وغيرهما[2].

★★★

يتردد صدى تخريب بيت المقدس في سنة ٦١٦ هـ، في الأدب العربي، ولكنه صدى باهت، فلم يكن موازياً للحدث الجلل الذي ثارت بسببه نفوس المسلمين، وخرجوا إلى الأقصى والصخرة. ومُزقت الثياب، وقُطعت الشعور، وغير ذلك مما تقدم ذكره. وكل ما نجده، أو ما وصل إلينا من الشعر، في هذا المجال، أبيات قليلة. أقول ذلك على الرغم مما يشير إليه أبوالمظفر سبط بن الجوزي، إذ يذكر أن الشعراء أكثروا في ذم ما حدث، وفي ذم الملك المعظم عيسى. وقول ابن الجوزي يلفت النظر، ويدعو إلى التساؤل: أين ذلك القول الكثير؟ وهل قيل شعر كثير حقاً، ولكنه لم يصل إلينا؟ ولِمَ لَمْ تثبت منه المصادر التاريخية والأدبية إلا أقل القليل؟ إن أبا المظفر سبط بن الجوزي نفسه، لم

(١) مفرج الكروب ٤/٣٢. وانظر: المختصر ٣/١٢٢، دول الإسلام/ ١١٩، الحضرة الانسية/ ٢٣٤.

(٢) مرآة الزمان ٨/٦٠١، ٦٠٢، ١٤/٢٧٢، الذيل على الروضتين/ ١١٥، ١١٦، النجوم الزاهرة ٦/٢٤٤، ٢٤٥، البداية والنهاية ١٣/٨٣، شفاء القلوب/ ٣٠٥، الأنس الجليل ١/٤٠٢، شذرات الذهب ٥/٦٥، ٦٦.

يذكر إلا بيتاً واحداً، في هذا المجال، وهو أحد بيتين من مقطوعة لم يُعرف قائلها، فقد ذكر: فقال بعضهم[1]:

في رجبٍ حَلَّلَ الحُميّا ... وأخرب القُدس في المُحرَّمْ
واستخدمَ القبطَ والنصارى ... وبعدَ ذا وزر المُكرَّمْ

فلم يرو السبط إلا البيت الأول فقط. وعندما ذكر هذا البيت أضاف معقباً: «من أبيات، ولم يعذره أحد»[2].

ومما قيل في ذلك مقطوعةٌ أنشدها قاضي الطور، مجد الدين محمد بن عبدالله الحنفي، ينعى فيها ما حلّ بالبيت المقدس من خراب، ويبدي أسفه، وحزنه لهذه المصيبة العظمى، ويوازن بين هذا العهد الذي تم فيه خراب بيت المقدس، والعهد السابق الذي كان عامراً فيه، ويتمنى أن يفتديه بنفسه، كما يبدو في قوله[3]:

مَرَرْتُ على القُدس الشريف مُسَلِّماً ... على ما تَبقَّى من رُبوعٍ كأنْجمِ
ففاضَتْ دموعُ العين مني صبابةً ... على ما مضى من عصرنا المتقدِّمِ
وقد رامَ عِلْجٌ أن يُعفّي رسومَهُ ... وشمَّر عن كفّي لئيم مُذَمَّمِ
فقلتُ له شلّت يمينُك خلّها ... لمعتبرٍ أو سائلٍ أو مُسلِّمِ
فلو كانَ يُفدى بالنفوس فَدَيْتُهُ ... بنفسي وهذا الظنّ في كلّ مُسْلِمِ

وتفرد ابن الشَّعّار الموصلي برواية قصيدة قيلت في تخريب بيت المقدس، في سنة ٦١٦ هـ، وهي لمحمد بن المبارك القَرْقساني، وكان خطيباً في بيت المقدس، عندما خربه الملك المعظم عيسى[4]. ويصور الشاعر مصاب القدس الجلل، وأثره في نفوس المسلمين، ويصور نفسه حزيناً للمصير الذي

(١) مرآة الزمان ٦٠٢/٨، ٢٧٢/١٤، الذيل على الروضتين/ ١١٦، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٢٠٢/٧، النجوم الزاهرة ٢٤٥/٦، البداية والنهاية ٨٣/١٣، شفاء القلوب/ ٣٠٩، شذرات الذهب ٦٦/٥.

(٢) مرآة الزمان ٦٠٢/٨.

(٣) مرآة الزمان ٦٠٢/٨، ٢٧٢/١٤، الذيل على الروضتين/ ١١٦، النجوم الزاهرة ٢٤٥/٦، البداية والنهاية ٨٣/١٣، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٢٠٢/٧، شذرات الذهب ٦٦/٥.

(٤) عقود الجمان ٢٦١/٦.

آل إليه بيت المقدس، وقد لبس ملابس الحداد لما حَلّ بالمدينة. ويتحدث عن الأقصى المبارك، والصخرة المشرفة، وما حَلّ بهما بعد تخريب القدس، كما يتحدث عن المدارس وأثر ذلك عليها، كما يبدو في قوله[1]:

مُصابُ القُدْس قد سَلَبَ الرُقادا ... وقد لبسَ الخطيبُ به حِدادا
وقاضية قَضَى نحباً وإن لم ... يمتْ لخراب ما أعلى وشادا
ونادى المسجدُ الأقصى أيرضى ... بهذا الفعل من فرض الجهادا
ومنبرُه الشريفُ يئنُّ خوفاً ... ومما حَلَّ بالمحراب مادا
ولا تَرْقى لصخرته دموعٌ ... فكمْ قد أقْرحَتْ أسفاً فؤادا
وأصبحت المدارسُ مُعولاتٍ ... تُريق محابرُ الفتيا المِدَادا
وما عن عَيْن سلوانٍ سُلوٌّ ... لساكنه ولو ملك البلادا
وبيتُ خليله وجلَّ لما قد ... أصاب سواه يرتعدُ ارتعادا

ويصور الشاعر أثر ذلك في نفوس الأعداء، يقول[2]:

وعندَ قُمامة اليومَ التهاني ... تتيهُ ككاعبٍ جاءتْ تهادى
ولكن الكنائسَ ضاحكاتٌ ... تعالى الله يفعلُ ما أرادا

ويخاطب الزائرين للبيت المقدس، مطالباً إياهم بالبكاء، وافتراش الرماد، ويصور الارتباط بين بيت المقدس ومكة، وقد لبست مكة الحداد، كما يبدو في قوله[3]:

ألا يا زَائريه ابكوا ونوحوا ... على الإسلام وافترشوا الرمادا
فلو بكت العيونُ دماً عليه ... تقاضى رُزْؤه الباكي ازديادا
فمكةُ ثاكلٌ عَبْرى فَلَما ... ألمَّ بأُختها لبستْ سوادا

ويختم الشاعر قصيدته مصوراً الحدث الجلل، مستنكراً ما حدث، فيقول[4]:

أبعدَ خراب بيت القُدس خطبٌ ... أشدُّ ولو توسدنا القتادا
على الدنيا وما فيها عفاءٌ ... ولو نلنا بها السَّبْعَ الشِّداد

(١) عقود الجمان ٦/٢٦١ - ٢٦٢.
(٢، ٣، ٤) نفسه ٦/٢٦١ - ٢٦٢.

صدى التنازل عن بيت المقدس في سنة ٦٢٦ هـ في أدب الحروب الصليبية:

تقدم القول أن الملك الكامل طلب من أخيه الملك المعظم بيت المقدس، ليعطيها للفرنج عوضاً عن دمياط.

يذكر رنسيمان أنه قد قدم أسير فرنجي (وقيل أسيران)، من قبل الملك الكامل، يعرض على الفرنج هدنة قصيرة الأمد، ويذكر أن المسلمين مستعدون للتنازل عن بيت المقدس، وتقرر قبول الهدنة، ورفض مناقشة شروط الصلح الأخرى[١].

لم تستطع دمياط الصمود، فقد «نفد ما عند أهلها من الأقوات، واشتد بها الغلاء، واشتد بأهلها الجوع»، وانتشر الوباء، ووصلت إلى الفرنج نجدات من البحر، واستولى الفرنج عليها، وطمعوا في ملك مصر، «وظنوا أنهم يملكون بملكها البيت المقدس، وسائر بلاد الشام»[٢]. وتقدمت الإشارة إلى أن الملك الكامل كان يريد الصلح، لتخليص دمياط، ولذا أرسل أسيراً أو اثنين لعرض التنازل عن بيت المقدس، على الفرنج، والتنازل عن قلب فلسطين، والجليل، ويحتفظ المسلمون بالقلاع الواقعة وراء نهر الأردن، وإعادة صليب الصلبوت، فرفض الفرنج هذا العرض[٣].

لقد كان هذا العرض عرضاً مثيراً للدهشة والقلق، فإنه يتضمن عودة «المدينة المقدسة، وبيت لحم، والناصرة، وصليب الصلبوت» إلى الفرنج دون قتال، كما يقول رنسيمان[٤]. ومن المستغرب أن يعارض (بلاجيوس) مبعوث البلاط البابوي، وبطرك بيت المقدس آنذاك، قبول هذا العرض. ومن المستغرب أيضاً أن البابوية «أخذت تعمل على ألا ينجح الامبراطور فردريك

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٢٨٥.

(٢) مفرج الكروب ٤/٣٢، ٣٣.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٢٨٦، وانظر ٣/٢٩٥، ٢٩٦.

(٤) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٢٨٦، وانظر: شعلة الإسلام/ ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، الحركة الصليبية ٢/٩٣٢.

الثاني في استرداد المدينة حتى لا يكسبه ذلك شرفاً ونصراً في معركته ضدها. لذلك أخذت البابوية ترسل الرسل والخطابات الى السلطان الكامل تحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور»[1].

لقد كانت الرسل مترددة بين الطرفين في طلب الصلح، في الوقت الذي كان القتال يجري فيه بينهما. وبذل المسلمون «القدس، وعسقلان، وطبرية، واللاذقية وجبلة، وجميع ما فتحه السلطان الناصر صلاح الدين، من الساحل، ما عدا الكرك والشوبك، ليسلموا دمياط، ويرحلوا عن الديار المصرية». ولكن الفرنج لم يرضوا بذلك، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن الأسوار التي خربت في بيت المقدس، وقالوا: «لا بد من تسليم الكرك والشوبك إليهم، ولم يتم الأمر بينهم». واضطر المسلمون إلى قتال عدوهم، وسَلِمَ بيت المقدس، وغيره من البلاد، من الاحتلال الصليبي ثانية[2].

ولما توجه الفرنج للزحف من دمياط إلى الجنوب، وقعوا في مأزق، وأحاطت بهم المياه من جميع الجهات، بعد أن فتح المسلمون الترع من كل مكان، وأحدقت بهم العساكر، وقطعوا عليهم خط الرجعة، وأحرز المسلمون النصر، فراسل الفرنج المسلمين «يطلبون منهم الأمان، ليسلموا إليهم دمياط، من غير عوض»، فاستجاب الملك الكامل، وأعطاهم الأمان، وكان ذلك في السابع عشر من رجب، سنة ٦١٨ هـ. وسُلمت المدينة إلى المسلمين، «وكان يوم تسلمها يوماً مشهوداً، عاد به الدين الإسلامي جديداً بعد أن كانت قد ساءت به الظنون»[3]. وسلم بيت المقدس من الاحتلال ثانية، وفشلت الحملة الصليبية الخامسة.

---

(١) انظر: الحركة الصليبية ٢/٩٦٤.

(٢) انظر: مفرج الكروب ٤/٩٥، الكامل ١٢/٣٢٩، المختصر ٣/١٢٩، تتمة المختصر ٢/٢١١، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٢٠٩، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ٣٩٤، السلوك ١/٢٠٦، ٢٠٧، الخطط المقريزية ١/٣٥٢، البداية والنهاية ١٣/٩٥، صبح الأعشى ٥/٤١٣، شفاء القلوب/ ٣٠٦، الأنس الجليل ١/٤٠٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٢٨٤ ـ ٢٨٧، ٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠٢، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٣، العلاقات بين الشرق والغرب ـ عبدالمنعم ماجد/ ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، إمارة الكرك/ ٢٠١ ـ ٢٠٦.

(٣) انظر: مفرج الكروب ٤/٩٦ ـ ٩٩، الذيل على الروضتين/ ١٢٩، ١٣٠، الكامل ١٢/٣٢٩، ٣٣٠،

وتجدر الإشارة إلى أن العديد من الشعراء هنأوا الملك الكامل وإخوته بتحرير دمياط، وقد أكثروا، ومنهم ابن عُنين، وبهاء الدين زهير، وراجح الحلي، وغيرهم[1]. ولكنهم لم يشيروا في قصائدهم إلى ما كان الملك الكامل قد عرضه على الفرنج، من تسليم لبيت المقدس. وغيره من بلاد المسلمين. ولعل الموقف المتمثل في التغني بالنصر، لم يسمح بالإشارة إلى عرض التنازل عن بيت المقدس، ولم يكن الحديث عن ذلك متلائماً والمقام الذي أنشد فيه الشعراء قصائدهم. ولعل خشيتهم من الملك الكامل منعتهم من الحديث عن ذلك أو الإشارة إليه، فقصروا أشعارهم على المديح والتهاني.

وما كاد الخطر الصليبي يزول، حتى تفرقت العساكر الإسلامية، ثم عاد الخلاف يُطل بأنيابه بين أبناء البيت الأيوبي، وهو الخلاف الذي سنراه يؤدي إلى التنازل عن بيت المقدس. يذكر أبوشامة المقدسي أن القلوب قد تغيرت، فأصبح الكامل والأشرف متصادقين، واتفقا على المعظم، مما جعل الأخير يتفق مع جلال الدين خوارزم شاه، لما بلغه اتفاق أخويه عليه. وبدت الوحشة بين الطرفين. وفي سنة ٦٢٣ هـ، قدم محيي الدين يوسف بن الجوزي، رسولاً من الخليفة إلى المعظم، طالباً منه الرجوع عن موالاة الخوارزمي، والصلح مع إخوته.[2]

= النجوم الزاهرة ٦/٢٤١، ٢٤٢، النجوم الزاهرة في حلى القاهرة/ ٣٩٥، المختصر ٣/١٢٩، ١٣٠، تتمة المختصر ٢/٢١١، ٢١٢، شفاء القلوب/ ٣٠٦، ٣٠٧، الأنس الجليل ١/٤٠٤، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٣، شعلة الإسلام/ ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، الحركة الصليبية ٢/٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠.

(١) انظر: ديوان ابن عنين / ٢٩ ـ ٣٢.

ديوان البهاء زهير / ٩٩ ـ ١٠٢.

مفرج الكروب ٤/١٠٠ ـ ١٠٥، الذيل على الروضتين/ ١٢٩، ١٣٠، شفاء القلوب/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩.

(٢) انظر: الذيل على الروضتين/ ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٢، ١٤٧، ١٤٨، مفرج الكروب ٤/١١٦، ١٢٧ ـ ١٢٩، الكامل ١٢/٤٢١، ٤٢٢، ٤٦٣، ٤٦٤، النجوم الزاهرة ٦/٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٤، ٢٦٦، المختصر ٣/١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٧، تتمة المختصر ٢/٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٨، ٢١٩، شفاء القلوب/ ٣١٠، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٣، ٢١٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٢٦.

لقد كان رد الفعل لدى الملك الكامل، تجاه التحالف بين الملك المعظم عيسى، وجلال الدين خوارزم شاه، سيئاً جداً، وتمثل في اتصال الملك الكامل بالامبراطور فردريك الثاني، والتنازل عن بيت المقدس. يذكر ابن واصل، في حوادث سنة ٦٢٤ هـ، أنه لما تأكدت الوحشة بين الملك المعظم، وأخويه الملك الكامل، والملك الأشرف، أرسل الكامل رسولاً (وهو الأمير فخر الدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ) إلى الامبراطور فردريك، وطلب منه القدوم إلى عكا. و«وعده أن يعطيه بيت المقدس، وبعض الفتوح الناصري» فاستجاب الامبراطور، وتجهز لقصد الساحل.[1].

وذُكر أن الامبراطور فردريك، كان قد أرسل رسولاً إلى الملك المعظم أيضاً، طالباً منه القدس والساحل، فرفض المعظم قائلاً: «قل لصاحبك ما أنا مثل الغير (هكذا)، ما له عندي سوى السيف»، ثم بدأ يتجهز للدفاع عن القدس[2].

وأما الملك الكامل، فكان يستقبل الهدايا مع رسل الفرنج، ويبعث الهدايا معهم أيضاً[3].

وفي سنة ٦٢٤ هـ، توفي الملك المعظم، وولي بعده ابنه الملك الناصر داود[4].

وترددت الرسل بين الملك الكامل، والملك الأشرف، من ناحية،

(١) مفرج الكروب ٤/٢٠٦، ٢٠٧، وانظر: المختصر ٣/١٣٧، ١٣٨، تتمة المختصر ٢/٢١٩، شفاء القلوب/ ٣١٠، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٥، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٢٧، الحركة الصليبية ٢/٩٥٦.

(٢) مرآة الزمان ٨/٤٢٤، كنز الدرر ٧/٢٨٤، البداية والنهاية ١٣/٣٢٧، المكتبة الصقلية/ ٥١٠، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٢٧، شعلة الإسلام/ ٤٣٨.

(٣) السلوك ١/٢٢٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٢٧.

(٤) انظر: الذيل على الروضتين/ ١٥٢، مفرج الكروب ٤/٢٠٨، ٢٢٤، مرآة الزمان ٨/٦٤٤، الكامل ١٢/٤٧١، النجوم الزاهرة ٦/٢٦٧، المختصر ٣/١٣٨، شفاء القلوب/ ٣١١، التاريخ المنصوري/ ١٥٣، الأنس الجليل ١/٤٠٥.

والامبـراطـور فردريك من ناحية أخرى[1]. وبينما كان الملك الكامل مشتغلاً بمراسلة الامبراطور فردريك، بشأن القدس، اتفق الكامل والأشرف على انتزاع دمشق من الناصر داود، وحاصر الأشرف دمشق، فيا للعجب! ولهذا سير الناصر داود رسولاً إلى جلال الدين خوارزم شاه[2].

إنني أذكر هذا لأن له صلة مباشرة مع التنازل عن بيت المقدس، بل إن هذا الحـديث هو أسـاس المـوضـوع. ولا شك أن هذا الخـلاف في البيت الأيوبي، كان ظاهـرة سلبية تجـاه المسلمين، فقد هدد ذلك الخلاف العالم الإسـلامي عامـة، والبيت المقـدس خاصـة. ولكنه كان ظاهرة ايجابية تجاه الفرنج. ومما زاد في أثر هذا الخلاف، تجاه المسلمين، بروز الخطر المغولي، إلى جانب الخطر الصليبي، وهما خطران كبيران هددا العالم الإسلامي.

وقدم الامبراطور فردريك إلى عكا، في سنة ٦٢٥ هـ، ومعه جموع كثيرة من الألمان وغيرهم من الفرنج. وكتب فردريك الى الكامل يطلب منه أن يسلمه القـدس، وجميع ما فتحـه صلاح الـدين[3]. «ولم يمكن دفـع الامبـراطـور ومحاربته، لما تقدم بينهما من الاتفاق، فراسله الكامل، ولاطفه» كما يقول ابن واصل[4].

ويُذكر أن الملك الكامل جمع امراءه واستشارهم، فرأى أحدهم أن يبقي دمشق على الملك الناصر داود، وأن يطلب الملك الأشرف، ثم قال: «ونقاتل هذا العـدو، فإمـا لنـا، وإمـا علينا، ولا يقال عن السلطان إنه أعطى الفرنج

(١) الكامل ١٢/٤٨٢، المختصر ٣/١٤٠.

(٢) مفرج الكروب ٤/٢٣٠ ـ ٢٣١، ٢٣٦ ـ ٢٣٩، ٢٤٠، وانظر: الذيل على الروضتين/ ١٥٤ ـ ١٥٦، الكامل ١٢/٤٨٣، ٤٨٤، النجوم الزاهرة ٦/٢٧٢، المختصر ٣/١٤٠، ١٤١، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، التاريخ المنصوري/ ١٥٨، ١٦١، ١٦٢، السلوك ١/٢٢٧، ٢٢٨، الأنس الجليل ١/٤٠٦.

(٣) مفرج الكروب ٤/٢٣٣، ٢٣٤، الأعلاق الخطيرة/ ٢٢٣، ٢٢٤، الكامل ١٢/٤٧٨، ٤٨٢، المختصر ٣/١٣٨، ١٤١، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، السلوك ١/٢٢٦، الأنس الجليل ١/٤٠٥، المكتبة العربية الصقلية/ ٣١٥، ٤١٨، ٤١٩.

(٤) مفرج الكروب ٤/٢٤٢، شفاء القلوب/ ٣١١.

القدس[1]. وهذا هو الرأي الذي كان على الملك الكامل أن يعمل به، ولكنه بدلاً من ذلك، قبض على الأمير الذي أشار بالقتال، وسيره إلى مصر، وحبسه فيها[2].

وترددت الرسل بين الكامل وفردريك. وانتهى الأمر بينهما «أن يسلم إليه القدس على شريطة أن يبقى خراباً، ولا يجدد سوره، وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره البتة، بل يكون جميع قراياه للمسلمين. وللمسلمين وال عليها يكون مقامه بالبيرة، من عمل القدس، من شماليه. وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة، والمسجد الأقصى، يكون بأيدي المسلمين»، وشعارهم فيه ظاهر، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط. «واستثنى الفرنج قرايا معدودة هي طريقهم إذا توجهوا من عكا إلى القدس»، تكون بأيديهم، خوفاً من المسلمين، وقد تسلمه الفرنج في أول ربيع الآخر، من سنة ٦٢٦ هـ[3]. وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه الناصر داود محصوراً في دمشق، يحاصره عمه الملك الأشرف[4].

ويحاول بعضهم التبرير لهذا العمل الشنيع، فقد قيل: إن الملك الكامل لو لم يف للامبراطور فردريك بما وعد، لفتح باب محاربة مع الفرنج، واتسع الخرق[5] ولكن، متى كان فتح باب الجهاد ضد الغزاة المعتدين مبرراً للتنازل عن حقوق الإسلام والمسلمين؟ أليس الجهاد بواجب على المسلمين عندما

(١، ٢) الأعلاق الخطيرة/ ٢٢٤.

(٣) انظر: الروضتين ٢/٢٠٦، دول الإسلام/ ١٣٢، التاريخ المنصوري/ ١٦٣، ١٦٤، السلوك ١/٢٢٨، ٢٢٩، شذرات الذهب ٥/١١٨، المكتبة العربية الصقلية/ ٥١٩، شعلة الإسلام/ ٤٣٨، ٤٣٩، الحركة الصليبية ٢/٩٦٦.

(٤) مفرج الكروب ٤/١٣٤، ١٣٥، ٢٤١ ـ ٢٤٢، الذيل على الروضتين/ ١٥٤، وانظر: المختصر ٣/١٤١، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، الكامل ١٢/٤٨٢ ـ ٤٨٣، مرآة الزمان ٨/٤٣١ ـ ٤٣٢، زبدة الحلب ٣/٢٠٥، الأعلاق الخطيرة ٣/٢٢٣، مختصر تاريخ الدول/ ٢٢٤، التاريخ المنصوري/ ١٧٦، ١٧٧، شفاء القلوب/ ٣١١، ٣٤٧، البداية والنهاية ١٣/١٢٣، ١٢٤، السلوك ١/٢٢٩، ٢٣٠، الأنس الجليل ١/٤٠٦، المكتبة العربية الصقلية/ ٣١٥، ٣١٦، ٤٢٠، ٥١٠، ٥١٣، ٥١٤.

(٥) مفرج الكروب ٤/٢٤٢، وانظر: شفاء القلوب/ ٣١١.

يُغزون في عقر دارهم؟ وإذا كان المسلمون في حالة ضعف، فإنه لا يحق لهم التنازل عن حقوقهم في بلادهم وأرضهم ومما يدمي القلب ما ذكره بعض المؤرخين قائلاً: «. . . فرأى ـ الملك الكامل ـ أن يرضي الفرنج بمدينة القدس خراباً، ويهادنهم مدة». وحلف الطرفان، وعقدت الهدنة[1].

ومما يستغرب أن هدف فردريك كان يتمثل في الحفاظ على جاهه، وكرامته، وناموسه عند الفرنج الذين كان قد وعدهم بالبيت المقدس. يقول: «لولا أني أخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك، وما لي غرض في القدس، ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم»[2]. وهذا أمر مستغرب حقاً، إنه يريد الحفاظ على كرامته، ومكانته، ووعوده، مع أنه غير مؤمن بالارتباط ببيت المقدس أو غيره من البلاد، كما يقول، ولكن الحاكم المسلم لا يجد غضاضة في التنازل عن بيت المقدس، وغيره من بلاد المسلمين.

ويُذكر أن الملك الكامل يعد «إلى حد كبير مسؤولاً عن افتقار المسلمين إلى روح المهاجمة». بينما «كان مستعداً لأن يقاتل، وأن ينغمس في كل مؤامرة، في سبيل توحيد الممتلكات الأيوبية تحت سلطانه»[3].

لقد كان في التنازل عن القدس كثير من «سوء الذكر، وقبح الأحدوثة»، وهو يناقض الذكر الطيب الذي ناله صلاح الدين بفتحه بيت المقدس. ومن الغريب أن يصدر مثل هذا القول عن الملك الكامل نفسه[4].

لقد كانت هذه الفعلة الشنيعة «من الوصمات التي دخلت على المسلمين»[5]. ويُذكر أن الأئمة والمؤذنين الذين حضروا من القدس، ذهبوا إلى

---

(١) مفرج الكروب ٤/٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) مفرج الكروب ٤/٢٤٣، السلوك ١/٢٣٠، شفاء القلوب/ ٣١٢، المكتبة العربية الصقلية/ ٥١٤، ٥٢٠ ـ ٥٢١، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٣٦.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية ١/٣٦٥.

(٤) انظر: الكامل ١٢/٤٨٠، دول الإسلام/ ١٣٢، النجوم الزاهرة ٦/٢٧١، ٢٧٢، البداية والنهاية ١٣/١٢٣، المكتبة الصقلية/ ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٢٨.

(٥) الذيل على الروضتين/ ١٥٤.

مخيم الكامل، «أذّنوا على بابه في غير وقت الأذان . . . ، فعز عليه ذلك، وأمر بأخذ ما كان معهم . . . ، وزجرهم، وقيل لهم: امضوا إلى حيث شئتم، فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء. واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار[1]. وعُدّ فعل الكامل هذا خروجاً عن الدين[2]. ويذكر سبط بن الجوزي أنه «أُقيمت القيامة في جميع بلاد الإسلام»، وأقيمت المآتم[3].

وشق هذا على المسلمين، فقد كان من أعظم المصيبات في الإسلام، وكان طامة كبرى حصل بسببها «وهن عظيم، وإرجاف شديد»[4].

كان لهذه الوصمة أثر كبير ف نفوس المسلمين. يذكر ابن واصل الحموي، وهو معاصر للأحداث، أن السلطان الكامل أرسل رسولاً إلى بيت المقدس ينادي بخروج المسلمين من مدينتهم، ودورهم، لتسليمها للفرنج، فلما نودي بالخروج، «وقع في القدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل». ولكنه يحاول التبرير لفعلته فيقول: «إن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وانه إذا قضى غرضه، واستتبت له الأمور، كان متمكناً من تطهيره»[5]. ولكنه تبرير لا جدوى منه. وهذا التبرير «سلوى تافهة» كما يقول رنسيمان[6]. وإذا كان الأمر كما حاول أن يقول الكامل، فهل تقتصر المدينة على مقدساتها، علماً بأن تلك المقدسات رازحة في ظل الاحتلال؟ أين أهلها، وما مصيرهم؟ وماذا عن منع المؤذنين من النداء بالأذان، في وقت الفجر، إعظاماً للامبراطور، واحتراماً له، خلال زيارته إلى

---

(١) السلوك ١/٢٣١.

(٢) إتحاف الأخصا ـ السيوطي/٢٨٥، إتحاف الأخصا المنسوب إلى ابن حجر الهيثمي/٢٣٩ ـ ٢٤١.

(٣) مرآة الزمان/ ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧.

(٤) دول الإسلام/ ١٣٢، وانظر: نهاية الأرب عن المكتبة الصقلية/ ٥٠٢، ٥٠٣.

(٥) مفرج الكروب ٤/٢٤٣، وانظر: الكامل ١٢/٤٨٣، النجوم الزاهرة ٦/٢٧٢، شعلة الإسلام/ ٤٤١، المكتبة العربية الصقلية/ ٥١٤، ٥٢٠، صلاح الدين ـ جب/ ٢١٦.

(٦) تاريخ الحروب الصليبية ٣/٣٣٢.

بيت المقدس؟ وكان القاضي الذي رافق الامبراطور، في زيارته، قد أوصى المؤذنين بعدم الأذان في تلك الليلة، بطلب من السلطان. ولكن، ياللعجب، إن الامبراطور لم يكن راضياً عن منع الأذان، فقد قال للقاضي: «أخطأت فيما فعلت، والله إنه أكثر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع آذان المؤذنين، وتسبيحهم بالليل. لقد أخطأتم. تبطلون شعائر دينكم لأجلي»[1]. ويذكر رنسيمان أنه جرى احتفال بدخول فردريك بيت المقدس. وقد سلمه القاضي مفاتيح المدينة باسم السلطان[2]. وذكر أن الامبراطور فردريك كان قد استأذن السلطان الكامل في زيارة القدس، فأذن له! فزارها وزار المقدسات فيها، وكان يرافقه القاضي بأمر من السلطان. ومما يثير النفس قول فردريك لقسيس أراد دخول الأقصى: «ما الذي أتى بك إلى ها هنا، والله لئن عاد أحد منكم يدخل بغير إذني، لآخذن ما في عينيه، نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل، وعبيده. وإنما تصدق علي وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، ولا يتعدى أحد منكم طوره»[3]. أقول: ولم الاستئذان في زيارة القدس بعد أن تنازل عنها الكامل؟ ولِمَ كل هذا التذلل الظاهر الذي يبديه فردريك، إذ يعد نفسه عبداً من عبيد السلطان؟ ولِمَ يعد التنازل عن بيت المقدس صدقة تصدق السلطان بها على الفرنج؟! إنه أمر غريب حقاً. ثم رحل الامبراطور إلى عكا، وقيل إلى يافا، بعد أن أقام ليلة أو ليلتين في بيت المقدس[4].

كما تجدر الإشارة إلى أن المملكة الصليبية في الشرق الإسلامي، بقيت تتخذ عكا قاعدة لها، ولم تنقل قاعدتها إلى بيت المقدس، بعد أن تسلموها في سنة ٦٢٦ هـ[5].

---

(١) مفرج الكروب ٤/٢٤٤، ٢٤٥، وانظر: مرآة الزمان ٨/٦٥٦، ٦٥٧، السلوك ١/٢٣١، شفاء القلوب/ ٣١٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٣٥، شعلة الإسلام/ ٤٤٤، ٤٤٥، المكتبة الصقلية/ ٥١٥، ٥١٦.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ٣/٣٣٣، ٣٣٤، وانظر: شعلة الإسلام/ ٤٤٣.

(٣) مفرج الكروب ٤/٢٤٤، مرآة الزمان ٨/٦٥٥، السلوك ١/٢٣١، شفاء القلوب/ ٣١٣.

(٤) مفرج الكروب ٤/٢٤٥، مرآة الزمان ٨/٦٥٧، النجوم الزاهرة ٦/٢٧٢، السلوك ١/٢٣٢، شفاء القلوب/ ٣٠٣، المكتبة الصقلية/ ٣٢٤.

(٥) انظر: الحركة الصليبية ٢/٩٧٦، ٩٨٧.

وتجدر الإشارة إلى أن الامبراطور فردريك كان يلقب نفسه بألقاب عديدة، ومنها لقبه «مالك ألمانيا. . . ومملكة الشام القدسية». وكان يصف نفسه بأنه المنصور بالله، وأنه «معز إمام رومية»، و«الناصر للملة المسيحية»، كما ورد في كتاب وصل إلى الملك الكامل، كما يذكر ابن نظيف الحموي[1]، في حوادث سنة ٦٢٧ هـ[2]. ومما يُذكر من ألقابه أيضاً، أنه «حافظ بيت المقدس، ملك ملوك النصرانية، حامي الممالك الفرنجية»[3].

★★★

أعلن الملك الناصر داود الحداد العام لما تعرض له الإسلام من فعل شنيع، أساء إلى الإسلام والمسلمين، وفرّط في حقوقهم، وحقوق دينهم، وحقوق بلادهم، وطلب الناصر داود من سبط بن الجوزي أن يعقد مجلسا في الجامع الأموي، في دمشق، فاستجاب، وعقد مجلساً تحدث فيه عن فضائل بيت المقدس. «وما ورد فيه من الأخبار والآثار». ويصور الصغار، والعار، والذل الذي لحق بالمسلمين من جراء تسليم بيت المقدس إلى العدو الصليبي. وحضر الناس ذلك المجلس، وحضره السلطان الناصر داود نفسه، ولم يتخلف أحد في دمشق عن الحضور[4].

لقد كان صدى التنازل عن بيت المقدس كبيراً، وبدا ذلك الصدى جلياً في حديث سبط بن الجوزي، في مجلسه هذا، وفيه يصور انقطاع الزائرين للبيت المقدس، والمجاورين هناك. ويصور إحساسات المسلمين إزاء

---

(١) بالفضائل محمد بن علي بن عبدالعزيز بن علي بن مزهر بن بركات بن علي بن نظيف الحموي الكاتب المكي.

(انظر مقدمة التاريخ المنصوري).

(٢) التاريخ المنصوري/ ١٨٩، ١٩٠، عقد الجمان للعيني ـ حوادث سنة ٦٢٦ هـ. وانظر: العدوان الصليبي على بلاد الشام/ ١٢٠.

(٣) عقد الجمان للعيني ـ حوادث سنة ٦٢٦ هـ. وانظر: العدوان الصليبي على بلاد الشام/ ١١٩، ١٢٠.

(٤) مفرج الكروب ٤/٢٤٥، ٢٤٦، المختصر ٣/١٤١، ١٤٢، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، ٢٢٣، السلوك ١/٢٣٣، شفاء القلوب/ ٣١٢، الأنس الجليل ١/٤٠٦.

المصيبة العظمى. ويستنكر ما حدث استنكاراً شديداً، ويخص السلطان الكامل بالاستنكار، ولكنه يستنكر مواقف ملوك المسلمين الآخرين. ومما قاله في مجلسه ذاك: «انقطعت عن بيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين، كم كانت لهم في تلك الأماكن من ركعة، كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة. تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما ونت، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت. أحسن الله عزاء المؤمنين. يا خجلة ملوك المسلمين. لمثل هذه الحادثة تُسكب العبرات. لمثلها تنقطع الملوك من الزفرات. لمثلها تعظم الحسرات»[1].

ويصور ابن واصل الحموي هذا كله، وكان ممن حضروا المجلس الذي عقده سبط بن الجوزي، يقول: «وحضرت أنا هذا المجلس»[2]، ويصف ذلك المجلس بأنه «كان يوماً مشهوداً»، وقد علا فيه ضجيج الناس، وعويلهم، ويكاؤهم[3].

ويذكر ابن واصل أنه سمع يومئذ السبط يورد قصيدة تائية، ومطلعها[4]:

أعيني لا تَرْقَى من العَبَراتِ صِلي في البُكا الآصال بالبكراتِ

ويضيف: إن الشاعر قد «وازن بها قصيدة دعبل بن علي الخزاعي، وضمنها بيتاً من القصيدة، وهو[5]:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

---

(١) انظر: مرآة الزمان ٨/٦٥٤، ٦٥٧ مفرج الكروب ٤/٢٤٥، ٢٤٦، المختصر ٣/١٤١ - ١٤٢، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، ٢٢٣، شفاء القلوب/ ٣١١ - ٣١٣، كنز الدرر ٦/٢٩٣ - ٢٩٤، السلوك ١/٢٣٠ - ٢٣٢، الأنس الجليل ١/٤٠٦ - ٤٠٧، اتحاف الأخصا - السيوطي/ ٢٣٦ - ٢٤٠.

(٢) مفرج الكروب ٤/٢٤٦.

مفرج الكروب ٢/٢٤٦. وانظر: المختصر ٣/١٤٢، تتمة المختصر ٣/٢٢٣، السلوك ١/٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، البداية والنهاية ١٣/١٢٣، ١٢٤، الأنس الجليل ١/٤٠٦، ٤٠٧.

(٤) الروضتين ٢/٢٠٥، نهاية الأرب ٢٧/٣٣.

(٥) شعر دعبل الخزاعي/ ٧٨، ٢٩٧. وانظر: الروضتين ٢/٢٠٦، تتمة المختصر ٢/٢٢٣، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٢٩٥، شفاء القلوب/ ٣١١، السلوك ١/٢٣٣.

ويذكر ابن واصل أنه قد علق بذهنه بيت من القصيدة التي أوردها السبط، وهو:

على قبــة المعـراج والصخـرة التي تفـاخـر ما في الأرض من صخرات

«فلم ير في ذلك اليوم إلا باك أو باكية» كما يقول[1].

قد يوحي قول ابن واصـل الحمـوي، بأن سبط ابن الجـوزي هو قائـل القصيدة، فهو يذكر بأنه عارض بها قصيدة لدعبل الخزاعي، وضمنها بيتاً من قصيدة الشاعر الأخير. ولهذا نجد (عبداللطيف حمزة) ينسبها إلى ابن الجوزي نفسه[2]. وقد يوحي قول ابن واصل أيضاً بأن السبط لم يكن قائل القصيدة، إذ يستخدم ابن واصل لفظة «يورد»، وهي لا تعني أن القصيدة للسبط. يقول ابن واصل: «ومما سمعته يومئذ يورد قصيدة تائية وازن بها قصيدة دعبل الخزاعي»[3].

ويذكـر أبـوالفـداء: «ومن جملة ما أنشد قصيدة تائية ضمنها بيت دعبل الخزاعي»[4]. وقد يوحي هذا القول أيضاً بأن سبط بن الجوزي هو قائلها، وقد لا يوحي بذلك، فلعله أنشد قصيدة ليست له.

ويذكر ابن الوردي: «. . . ، فعمل مجلس وعظ. . . ، وأنشد قصيدة دعبل الخزاعي»[5]. وهذا يبين أن القصيدة التي أُنشدت هي قصيدة للشاعر العباسي دعبل الخزاعي. هل أنشد السبط قصيدة دعبل التي مطلعها[6]:

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ
ومنــزلُ وحي مُقْفــرُ العَــرَصــاتِ

(١) مفرج الكروب ٤/٢٤٦. وانظر: الروضتين ٢/٢٠٥، تتمة المختصر ٢/٢٢٢.

(٢) الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية/ ٩٣.

(٣) مفرج الكروب ٤/٢٤٦.

(٤) المختصر ٣/١٤٢.

(٥) تتمة المختصر ٢/٢٢٢.

(٦) شعر دعبل/ ٧٨، ٢٧٩، مفرج الكروب ٤/٢٤٦.

وهل أنشد قصيدة ابن المجاور التي ضمنها بيتاً من قصيدة دعبل، ونسبها ابن الوردي إلى دعبل؟ وإذا صح الافتراض الثاني، وهو أقرب إلى سياق ما ذكرته المصادر المشار إليها، فإنه يبدو أن الأمر لعله قد اختلط على ابن الوردي. فالقصيدة ليست من شعر الخزاعي، ولكنها ضُمنت بيتاً من قصيدته، وقد قالها ابن المجاور معارضاً قصيدة دعبل، كما ورد في قول ابن واصل الحموي، وهو معاصر لسبط بن الجوزي، وكان حاضراً في ذلك المجلس.

يُضاف إلى هذا كله، أن القصيدة هذه غير موجودة في شعر دعبل الخزاعي.

وينسبها أبوشامة المقدسي إلى شهاب الدين أبي يوسف يعقوب بن محمد بن المجاور[1]، وهي له فيما أُرجح، وفقاً لما تقدم.

وفي هذه القصيدة يضعنا أبوشامة المقدسي أمام مشكلة أُخرى، فهو يذكرها في حوادث سنة ٥٨٨ هـ، بعد أن يتحدث عن الهدنة بين المسلمين والفرنج، في عهد السلطان صلاح الدين، في تلك السنة. يقول: إن بيت المقدس لم يزل عامراً محصناً من عهد صلاح الدين حتى سنة ٦١٦ هـ، حيث خُرّب. كما تقدم. ثم يقول: «ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد المجاور[2]»، وهذا القول قد يوحي بأن هذه القصيدة قيلت لما حل الخراب ببيت المقدس، في سنة ٦١٦ هـ. ولكن أباشامة نفسه، عندما يتحدث عن خراب بيت المقدس، في ذيل كتابه الروضتين، لا يذكر إلا مقطوعة قالها القاضي مجد الدين محمد بن عبدالله الحنفي، وبيتاً واحداً قاله مجهول[3]. بينما يذكر قصيدة ابن المجاور، في كتابه الروضتين. ويقتصر عدد من المؤرخين والكُتّاب، في حديثهم عن خراب بيت المقدس، على ذكر المقطوعة التي قالها قاضي الطور الحنفي الآنف ذكره، والبيت الذي نُسب إلى

(١) كتاب الروضتين ٢/٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) نفسه ٢/٢٠٥.

(٣) الذيل على الروضتين ١١٥، ١١٦.

مجهـول، فابن تَغْـري بَرْدي، والعيني، ذكر كل منهما المقطوعة والبيت[1]. وسبط بن الجوزي، وابن كثير، وعز الدين أحمد بن ابراهيم الحنبلي، اقتصر كل منهم على ذكـر البيت[2]. وابن العماد، يذكر المقطوعة، ويذكر البيت، ويضيف إليه بيتاً آخر[3]. ولم يذكر آخرون بيتاً واحداً من الشعر، فلم يشيروا إلى المقطوعة أو البيت، ومنهم ابن واصل، وأبوالفداء، وابن الوردي، وابن سعيد، ومجير الدين العُلَيْمي الحنبلي[4]. ولو كان ابن المجاور قد قال قصيدته، في سنة ٦١٦ هـ، عن خراب القدس، ألا يشير إلى ذلك مؤرخ أو كاتب آخر سوى أبي شامة المقدسي؟

وإذا عدنا إلى القصيدة ذاتها «أعيني لا ترقى من العبرات. . .»، فإننا نجد فيها حديثاً عن تشتيت أهل بيت المقدس، وهدم المجد الذي حققه السلطان صلاح الدين، بفتح بيت المقدس، في سنة ٥٨٣ هـ، يقول[5]:

لقـد أشْمتـوا عكـا وصـور بهـدمهـا ... ويا طالمـا غادَتْـهُمـا بشمـات
لقـد شتتـوا عنهـا جماعـةَ أهْلِهـا ... وكـلُّ اجتـمـاع مؤذنٌ بشَتـات
وقـد هدمـوا مجـدَ الصـلاح بهدمها ... وقـد كان مجـداً باذخَ الغُـرُفـات
وقـد أخمـدوا صَـوتـاً وصيتـاً أثـاره ... لهـم عُظمُ ما والـوا من الغَـزَوات

هل تبين هذه الأبيات أن القصيدة قيلت عند خراب بيتِ المقدس، في سنة ٦١٦ هـ، أم أنها قيلت عند التنازل عنه في سنة ٦٢٦ هـ؟

إن هدم بيت المقدس، وتشتيت أهله، جرى في سنة ٦١٦ هـ. وجرى مثل ذلك التشتيت في سنة ٦٢٦ هـ أيضاً، عندما نودي بخروج أهلها منها، وتسليمها للامبراطور فردريك، كما جرى هدم المجد الذي حققه صلاح الدين. وتجدر

(١) النجوم الزاهرة ٦/٢٤٥، عقد الجمان/ حوادث سنة ٦١٦ هـ.

(٢) انظر: مرآة الزمان ٨/٦٠٢، البداية والنهاية ١٣/٨٣، شفاء القلوب/ ٣٠٥.

(٣) شذرات الذهب ٥/٦٦.

(٤) انظر: مفرج الكروب ٤/٣٢، المختصر ٣/١٢٢، تتمة المختصر ٢/٢٠٣، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة/ ١٩٣، الأنس الجليل ١/٤٠٢.

(٥) كتاب الروضتين ٢/٢٠٦.

الإشـارة إلى أن السلطان الكامل اشترط، عند التنازل عن القدس. أن تبقى خراباً، وأغلب الظن أن الشاعر يشير إلى هدم السلطان الكامل ذلك المجد الـذي بنـاه السلطان صلاح الدين، لا هدم الملك المعظم لها، لأن الملك الكامل تنازل عنها، وسلمها للعدو، وأما الملك المعظم، فقد هدمها خوفاً من استيلاء العدو الصليبي عليها.

يُضـاف إلى هذا أن الملك الناصر داود، اتخذ من فعلة الملك الكامل طريقاً للتشنيع عليه، كما تقدم. وكان هذا في سنة ٦٢٦ هـ. ولم يكن الناصر داود يتولى الحكم في دمشق، في سنة ٦١٦ هـ.

ولعله يمكن بهذا تغليب الظن، بل الترجيح، بأن القصيدة هذه، قد قيلت في سنة ٦٢٦ هـ، عند التنازل عن بيت المقدس.

وتجدر الإشارة إلى أن محمد كامل حسين، يذكر أن القصيدة قيلت في سنة ٦٢٦ هـ[1]، بينما يذكر أحمد بدوي أنها قيلت في سنة ٦١٦ هـ[2]. وقد اقتصر كل منهما على الإشارة إلى التاريخ الذي ذهب إلى أن القصيدة قيلت فيه، دون مناقشة الأمر.

★ ★ ★

ولكن، لم كل هذا البكاء، وما جدواه؟ لقد تحدث المؤرخون والأدباء عن البكاء والضجيج في بيت المقدس، وفي دمشق. ولِمَ يقتصر الملك الناصر داود على الطلب من سبط بن الجوزي أن يعقد مجلساً وعظياً رثائياً بكائياً من ناحية، واستنكـارياً مشنعاً على الملك الكامل من ناحية أخرى؟ ولِمَ لم يعمل على إعداد القوة. ورباط الخيل، ولِمَ لم يعمل على توحيد القوى الإسلامية للوقوف في وجه العدو الصليبي؟ وأغلب الظن أن الناصر داود أراد التشنيع على عمه السلطان الكامل، إذ كان في حالة نزاع معه.

(١) انظر: دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين/ ١٠٠.

(٢) انظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ٤٧٥.

وبسبب الصدى الذي ثار في العالم الإسلامي، للتفريط بالبيت المقدس، وغيره من بلاد المسلمين في الشام، ذُكر أنه في هذه السنة، ٦٢٦ هـ، أُرسلت رسل إلى بلاد الإسلام، للتخفيف من شأو الثورة في العالم الإسلامي، بعد التنازل عن بيت المقدس للفرنج. وكان السلطان الكامل قد عمل على «تسكين قلوب النـاس، وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس»، وقيل «تسكين العـالم الإسلامي عقيب الصلح على القدس». وكان قد أُشير على السلطان الكامل أن يرسل رسولاً إلى الخليفة «في نعي البيت المقدس، والعذر عنه، فقال الملك الكامل: نحن مماليك هذا البيت المقدس، وآباؤنا وخدمتنا له معروفة، ما نرائي ولا نُماذق»[٢]، أليس هذا القول غريباً؟ ويُذكر أنه أُرسل رسولان أيضاً، إلى الملك الأشرف «يخبـرانه خبر الصلح مع الفرنج»، وكان يصحبهما رسول الاسبتارية[٣]!

★ ★ ★

يتردد صدى التنازل عن بيت المقدس، في الشعر العربي، ولكنه صدى، اقتصر على قصيدتين، وعدد من المقطوعات التي وصلت إلينا.

تقدم القول أن سبط ابن الجوزي، في حديثه عن التنازل بيت المقدس، في سنة ٦٢٦ هـ، يذكر أن الشعراء أكثروا «في حديث القدس»، ولكنه لم يرو إلا مقطوعة واحدة لشاعر مجهول[٤]. ويصنع مثله عز الدين أحمد بن إبراهيم العسقلاني[٥]، فهو يذكر أن الشعراء قد أكثروا في الحديث عن تسليم القدس، في سنة ٦٢٦ هـ، ولكنه لم يرو إلا مقطوعة أخرى لشاعر مجهول أيضاً[٦]، إضافة إلى المقطوعة التي رواها سبط ابن الجوزي. ويذكر ابن واصل الحموي

(١) انظر: التاريخ المنصوري/ ١٧٩، السلوك ١/٢٣٢.

(٢) التاريخ المنصوري/ ١٨٣.

(٣) التاريخ المنصوري/ ٢٠٣. وانظر: تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب/ ١١٥٤.

(٤) انظر: مرآة الزمان ٨/٦٥٤، ٦٥٥.

(٥) صاحب شفاء القلوب في مناقب بني أيوب.

(٦) انظر: شفاء القلوب/ ٣١٢.

بيتين آخرين من الشعر، أرسلهما صلاح الدين بن شعبان الإربلي[1]، إلى السلطان الكامل، وكان صلاح الدين هذا رسوله إلى الامبراطور فردريك[2].

إنه أمر يدعو إلى التساؤل: هل قيل شعر كثير، ولكنه لم يصل إلينا؟ إن ما وصل إلينا من الشعر الذي قيل في تصوير تلك المصيبة، لا يمكن أن يُعدّ موازياً للحدث الجلل. إن المصيبة التي نزلت بالمسلمين من جراء التنازل عن القدس، استثارت مشاعرهم واحاسيسهم، فحزنوا، وبكوا، وضجوا، واستنكروا وأذّنوا في غير وقت الأذان، أمام خيمة السلطان الكامل، وشنعوا عليه، كما تقدم. لقد كان من المتوقع أن تستثير هذه المصيبة مشاعر المسلمين وأحاسيسهم، وأن يعبروا عما أحسوا به إزاءها، وعما أحس به المسلمون أيضاً. ولكن ذلك لم يحدث، ولم يجد صداه في أشعار الشعراء، على الصورة التي كنا نتوقعها، بل الصورة التي ينبغي أن ترتفع إلى مستوى الحدث ذاته. وهو أمر يدعو إلى التساؤل: هل كان الشعر العربي لا يعبر عن الهزائم بوضوح؟ وإذا ما عبر عنها، كان تعبيره قاصراً كماً. هل كان الشعراء يخشون من الملك الكامل وسطوته؟ ربما كان بعضهم، وربما أكثرهم، يخشى منه، ولكن، ماذا عن الملك الناصر داود نفسه، وقد كان أديباً، شاعراً وكاتباً، وكان يقف موقفاً عدائياً من عمه الملك الكامل؟ لماذا لم يقل شعراً، أو ينشيء رسالة، يصور أحاسيسه ومشاعره إزاء التنازل عن بيت المقدس؟ ولماذا اقتصر على الطلب من سبط ابن الجوزي أن يعقد مجلس الوعظ الآنف ذكره؟ ولماذا لم يقل الشعراء الذين كانوا يعيشون في ظل الملك الناصر داود، في الشام، شعراً يصور الأحداث؟

يذكر أن القصيدة التي أنشدها، أو أوردها، سبط ابن الجوزي، في المجلس الذي عقده في دمشق، تقع في ثلاثمائة بيت، ولكنه لم يصل إلينا منها سوى سبعة وعشرين بيتاً فقط[3]. وأشار عدد من المصادر إلى تلك القصيدة دون

---

(١) انظر: مفرج الكروب ٥/١٦٦، الوافي بالوفيات ٣/٦٣.

(٢) انظر: مفرج الكروب ٥/١٦٦، وفيات الأعيان ١/١٨٦، الوافي بالوفيات ٧/٦٣.

(٣) كتاب الروضتين ٢/٢٠٥، ٢٠٦، السلوك ١/٢٣٣، شفاء القلوب/ ٨٠.

تحديد عدد أبياتها[1].

★ ★ ★

تصور قصيدة ابن المجاور هذه الحالة التي كان المسلمون عليها في ذلك الوقت، كما تصور واقعهم المستسلم آنذاك. ومما يعبر عن ذلك الواقع لجوء الشاعر إلى الحزن والبكاء معبراً عن إحاسيسه ومشاعره الحزينة أيضاً، كما يبدو في قوله[2]:

أعـيـنـي لا تَرْقَي من الـعَـبَـرات ... صِلي في البكا الآصال بالبكرات
لعـلَّ سيولَ الـدَّمْـعِ يُطْفىء فيْضُها ... تَوقـدَ ما في الـقلب من جَمَـرات
ويا قلبُ أسعـرْ نارَ وجـدِك كُلَّمـا ... خَبَتْ بادكـارٍ يبـعـثُ الحَسَـرات
ويا فمُ بُحْ بالـشَّـجْـو منـك لعـلَّه ... يُروّح ما ألـقـى من الـكُـرُبـات

ومن الواضح أن شعر الشاعر جاء باكياً، وجاء لوناً رثائياً يستثير الوجدان، ولكن اللجوء إلى هذا اللون الرثائي البكائي غير مجد، وهو لون قد يُشيع الاستسلام في النفس. وكان يجدر بالأدب في مثل تلك الحالة، أن يشارك في توجيه المسلمين إلى الإعداد، وحثهم على الجهاد، وإشاعة روح المقاومة في نفوسهم، بعد أن يستل روح الهزيمة والاستسلام منها. وعليه أن لا يكتفي بالتعبير عن المشاعر والأحاسيس الحزينة. ولكننا نجده معبراً عن الاسترسال في البكاء من البكور حتى العشي، لعل ذلك يستطيع أن يخفف من بعض ما تحس النفوس به إزاء المصيبة التي حلت بالمسلمين وبلادهم. ويعمد الشاعر إلى التأثير في النفوس بصورة أكبر، فيلجأ إلى استخدام أسلوب النداء، وهو ينادي نفسه، بل ينادي أعضاء جسمه، فمرة يلجأ إلى مخاطبة عينيه، وأخرى يلجأ إلى مخاطبة قلبه، وثالثة يلجأ إلى مخاطبة فمه، إنه يطلب من عينيه الاستمرار في البكاء، ويطلب من قلبه إشعال نار الوجد والحزن. كما يطلب من فمه التعبير

(١) انظر: مفرج الكروب ٤/٢٤٦، المختصر ٣/١٤٢، تتمة المختصر ٢/٢٢٢، السلوك ١/٢٣٣، الأنس الجليل ١/٤٠٦، ٤٠٧.

(٢) كتاب الروضتين ٢/٢٠٥.

عما حدث، والبوح بما تحس به السريرة.

ويتحدث الشاعر ابن المجاور عن مكانة المدينة المقدسة في نفسه، وفي نفوس المسلمين عامة، وهي قدسية تدعو إلى الحفاظ عليها، والجهاد في سبيلها. ويخص المقدسات الإسلامية فيها: المسجد الأقصى، والصخرة المشرفة، بالحديث. ويصور مكانتها عند المسلمين. ويعبر عن أحاسيسه ومشاعره إزاء ما حل بتلك المقدسات الإسلامية، ولكنه يعبر عنها مسترسلاً في اللجوء إلى البكاء، كما يبدو في قوله[1]:

على المسجدِ الأقصى الذي جلَّ قَدْرُه
على موطنِ الإخباتِ والصَّلَواتِ
على منزلِ الأملاكِ والوحي والهدى ... على مشهدِ الأبدال والبَدَلاتِ
على سُلَّمِ المعراجِ والصخرة التي ... أنافَتْ ما في الأرض من صَخَراتِ
على القبلة الأولى التي اتجهتْ لها ... صلاةُ البرايا في اختلاف جهاتِ
على خير مَعْمورٍ وأكرمِ عامرٍ ... وأشرفِ مبنيّ لخير بُناةِ

ويصور المقدسات قد عفت في ظل الاحتلال الصليبي، بعد أن كانت مقصد المسلمين للتعبد، من كل حدب وصوب في أنحاء العالم الإسلامي، كما يصورها مكاناً للخير والإحسان، فيتحسر الشاعر ويأسى لما حل بمدينته المقدسة ومقدساتها، كما يبدو في قوله[2]:

عفا المسجدُ الأقصى المباركُ حوله الـ
رفيع العماد العالي الشُرُفات
عفا بعدما قد كان للخير موسماً ... وللبِّر والإحسان والقُرُبات
يُوافي إليه كلُّ أشعث قانتٍ ... لمولاه بَرّ دائم الخَلَوات
خَلا من صلاةٍ لا يملُّ مقيمُها ... تُوَشَّحُ بالآيات والسُّوَراتِ
خَلا من حَنين التائبين وحُزْنهم ... فمن بين نُوّاحٍ وبين بُكاة

(١) كتاب الروضتين ٢/٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) نفسه ٢/٢٠٦.

ويدعو ابن المجاور إلى البكاء على مصير بيت المقدس، ويخاطب المقدسات الإسلامية في الحجاز، في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، طالباً منها البكاء على المصير الذي لاقته المقدسات الإسلامية في بيت المقدس، وهو يربط بذلك بين المدن الإسلامية المقدسة: القدس، ومكة، والمدينة، وهو رباط سماوي من ناحية، وأرضي من ناحية أخرى، يقول[1]:

لِتَبْكِ على القُدس البلادُ بأسرها ... وتسعدن بالأحزان والتَّرحاتِ
لِتَبْكِ عليها مكةٌ فهي أُختُها ... وتشكو الذي لاقتْ إلى عَرَفاتِ
لِتَبْكِ على ما حَلَّ بالقُدْس طيبةٌ ... وتشرحه في أكرمِ الحُجُرات

ويمثل توجه الشاعر إلى الانصراف نحو الشكوى، فوق جبل عرفات، وفي مقام رسول الله، ﷺ، لما حَلّ بالمسلمين، ومدينتهم المقدسة، وسائر بلادهم، على أيدي عدد من حكامهم المستسلمين المتعاونين مع العدو الصليبي المحتل، يمثل في أحد مظاهره، افتقاراً إلى الشخصية القدوة المثلى، وهي شخصية الرسول، ﷺ، الشخصية القائدة الهادية إلى طريق الخلاص. كما يمثل تشفعاً، وتضرعاً، وتوسلاً إلى رسول الله، وهذا ما تلجأ إليه النفوس، بل يلجأ إليه الشعراء، عند نزول المصائب بالمسلمين. وهم يلجأون إلى الاستغاثة والدعاء، وهذا ما كان شائعاً في فترة الحروب الصليبية، أو في قسم من مراحلها، وأخص الفترة التي كانت الهزائم تحل بالمسلمين فيها. وأيّ هزيمة أكبر من التنازل عن بيت المقدس، القبلة الأولى، ومسرى رسول الله ﷺ؟

حقاً لقد كان المسلمون بحاجة إلى الشخصية القيادية المثلى، بعد موت السلطان صلاح الدين، إذ قُسّمت البلاد بين ملوك الأيوبيين، واستشرى النزاع في البيت الأيوبي، مما أدى إلى حلول المصائب والكوارث بالمسلمين، ودينهم، وأرضهم، وإلا لما وجدناهم يفرطون بقدسهم، ودينهم، وأرضهم.

ويصور الشاعر تشتيت أهل بيت المقدس، ويندد بمن كانوا سبباً فيما حَلّ ببيت المقدس، ويعرّض بهم، فقد هدموا صرح المجد الذي كان السلطان

(١) كتاب الروضتين ٢/٢٠٦.

صلاح الدين قد بناه، كما تقدم في الحديث عن تاريخ هذه القصيدة.

ويصور المجد الذي كان صلاح الدين قد حققه، ممثلاً بالفتح القدسي، في سنة ٥٨٣ هـ، فيقول[١]:

أمـا علمـت أبـنـاءُ أيوب أنَّـهـمْ بمَسْعـاتـه عُدّوا من السَّـرَواتِ
وأنَّ افتتاحَ القُدسِ زهرةُ مُلكهـم وهـل ثَمَـرٌ إلّا من الـزَهَـراتِ

ويختتم ابن المجاور قصيدته هذه بالبكاء، كما استهلها به، ويلجأ إلى التراث الشعري القديم، ويختار قصيدة معبرة، من شعر دعبل الخزاعي، لترديد ما جاء فيها، معبراً عن الحزن العميق، كما يبدو في قوله[٢]:

فَمَنْ لي بنُـوّاحٍ يَنحْنَ على الـذي شَجـانـي بأصـواتٍ لهـنّ شَجـاة
يُرددنَ بيتـاً للخُـزاعـيّ قالَـهُ يُؤبِّـنُ فيه خيرة الـنخـيرات
مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تلاوة ومـنـزلُ وحي مقفـرُ العَـرَصـات

فابن المجاور يرثي بيت المقدس، ويبدو حزيناً، والخزاعي يرثي آل البيت، ويبدو حزيناً كذلك. ومما تجدر الإشارة إليه أن ما قاله دعبل يمثل قمة من قمم الحزن في الشعر العربي، ويمثل ارتباطاً وثيقاً بآل البيت. وهو حزن يشيع في هذا اللون من شعر دعبل، ويعبر عن المصائب التي نزلت بآل البيت. وكـذلـك يبـدو ابن المجاور في شعره، فقصيدته هذه تمثل قمة في الحزن، والبكـاء، كمـا تمثـل ارتباطاً وثيقاً بالمدينة الإسلامية المقدسة خاصة، وبلاد المسلمين عامة.

وابن المجـاور في قصيدتـه هذه، يبـدو متأثراً بالمعاني التي شاعت في قصيدة دعبل الخزاعي، وفيها ينهج نهجه في الوزن، والقافية أيضاً. ولا غرو في ذلك، فهما يتحدثان في مجال الحزن وتصويره لما حلَّ من المصائب في نظر كلا الشاعرين.

ويتفرد ابن الشعار الموصلي برواية قصيدة للشاعر أبي محمد عبدالرزاق بن

(١، ٢) كتاب الروضتين ٢/٢٠٦.

رزق الله بن أبي بكر بن خلف الرَّسْعَنيّ[1]، أنشدها لما «سمع الخبر بتسليم البيت المقدس إلى الفرنج»[2]. ويصور الشاعر فيها المصاب الجلل وأثره في نفوس المسلمين، ويصور المآتم التي أقيمت في بلاد الإسلام إزاء ذلك الحدث. ويوازن بين مواقف المسلمين، ومواقف الفرنج إزاء المصيبة الكبرى، ويستنكر تلك الفعلة الشنيعة، ويُعرّض بفاعليها، ويبدو وكأنه لا يصدق ما يحدث، ويتمنى لو أنه غُيِّب في قبره قبل نزول هذه المصيبة بالإسلام والمسلمين، كما يبدو في قوله[3]:

تَعالَوْا نُقيمُ الحزنَ في مجمع الأنس ... ونصبغُ أثوابَ المصيبةِ بالنَّقْس
ونَعْملُ للإسلام أعظمَ مأتمٍ ... كما أن عُبّاد الطواغيت في عُرس
ونبكي دماً بعد الدموع وإنَّهُ ... قليلٌ على ما قد أُصبنا من القُدس
أيُؤخذُ والإسلامُ فيه بقيةٌ ... فواعَجَبا أين النّخاةُ من الحُمْس
مناماً أرى أم يقظةً ما سمعتُهُ ... أحقاً عبادَ الله أم خانني حِسّي
لئن تَمَّ هذا الأمرُ لا تَمَّ إنه ... لأشْهَى إلى نفسي حُلوليَ في رَمسي
لئلا أرى داعي الضلال مُصوّتاً ... على المسجد الأقصى يُؤذنُ بالنَّقْس
لعمرك هذا الرُزءُ لا هُلْكُ هالكٍ ... ولا سَلْبُ مالٍ ولا عَدَمُ النَفْس

وهذا اللون من الشعر رثائي بكائي يستثير الوجدان والمشاعر أيضاً، ولكنه يقرن ذلك بالاستنكار، والتعريض، كما يقرنه باستثارة همم «النخاة من الحمس»، كما يقول. إن الشاعر في هذا اللون البكائي من الشعر، يبلغ به الأمر أن يتمنى الموت، قبل أن يرى ما يحدث من مصائب تحل بالإسلام، وفي هذا يأس كبير، وتشاؤم لما كان عليه المسلمون آنذاك. وكان على الشاعر أن

(١) ولد برأس عين في سنة ٥٨٩ هـ، ونشأ فيها، واشتغل بالعلم. ثم قدم الموصل طالباً العلم. كان فقيها، محدثاً، شاعراً. وله مصنفات في العروض، والفقه، وغيرها. توفي في سنجار سنة ٦٦١ هـ، وقيل ٦٦٠ هـ.

(انظر: عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٤/ ١٣٠ ـ ١٣٧، تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ١/ ١٩٢ ـ ١٩٤، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٦. تكملة إكمال الإكمال/ ١٥٤ ـ ١٥٦، معجم البلدان ٣/ ١٣ ـ ١٤).

(٢، ٣) عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٤/ ١٣٠، ١٣٦.

يتحدث عن تنظيم صفوف المقاومة، والحث على الجهاد.

وأُنشىء عدد من المقطوعات الشعرية تصور ما حَلّ ببيت المقدس عند تسليمها في سنة ٦٢٦ هـ، وهي ثلاث مقطوعات تتكون كلٌّ منها من بيتين فقط، نُسبت اثنتان منها إلى مجهول، وأنشأ ثالثتها صلاح الدين بن شعبان الإرْبليّ، وهو رسول السلطان الكامل إلى الامبراطور فردريك، بعد أن قُررت أسس الصلح بين السلطان الكامل، والامبراطور فردريك.

وفي أولاها يعبر الشاعر المجهول عن أحاسيسه ومشاعره تجاه التنازل عن بيت المقدس، وكان من شروط تسليمها أن تبقى خراباً كما تقدم. وهي أحاسيس كلها حزن، وذلك لسوء المصير الذي آلت إليه القدس. وفيها يلجأ الشاعر إلى البكاء، شأنه شأن غيره من الشعراء الآنفي الذكر، يقول[1]:

عَزيزٌ علينا أن نرى القُدس تَخْربُ ... وشَمْسُ مبانيه تزولُ وتَغْرُبُ
وقلتُ له: منا الدُّموعُ لأنَّه ... على مثله تجري الدُّموع وتسكبُ

وفي ثانيتها تعريض بأولئك الحكام الذين تنازلوا عن بيت المقدس، ويَعدُّ قائلها ما حدث وصمة عار في جبين كل من فرط بحقوق الدين، والمقدسات، وسائر ما فرطوا به من أراضي المسلمين في الشام، يقول[2]:

إنْ يَكُنْ بالشآم قلَّ نَصيري ... وتَهدَّمتُ ثم دامَ هُلوكي
فلقد أصبحَ الغَداة خرابي ... سمةَ العارِ في حياة الملوك

يذكر عز الدين أحمد بن إبراهيم الحنبلي العسقلاني أنّ «فقيراً بات بالقدس، فسمع قائلا يقول في الليل»، وذكر البيتين السابقين[3].

وفي ثالثتها يتحدث قائلها صلاح الدين الإربلي عن تقرير القواعد مع الامبراطور فردريك، وقد استحلف الإربلي رسول الملك الكامل، الامبراطور

(١) مرآة الزمان ٨/٦٥٥، شفاء القلوب/ ٣١٢، نفح الطيب ٢/١٦.

(٢) مرآة الزمان ٨/٤٥٤، ٤٥٥، شفاء القلوب/ ٣١٢، نهاية الأرب ٢٧/٣٩، نفح الطيب ٢/١٦.

(٣) انظر: شفاء القلوب/ ٣١٢، ٣١٣.

على تلك القواعد، وكان ذلك في عكا، في سنة ٦٢٦ هـ، ثم كتب الإربلي إلى الملك الكامل بذلك، يقول[١]:

زَعَمَ اللعين الانبرورُ بأنّه سِلْمٌ يدومُ لنا على أقواله
شربَ اليمينَ فإنْ تَعرَّض ناكثاً فلنأكلنَّ لذاك لحمَ شماله

★★★

واستمرت الهدنة بين المسلمين والفرنج، واستمر السلطان الكامل والامبراطور فردريك يتبادلان الرسائل، وبقي الأمر كذلك إلى أن توفي السلطان الكامل في سنة ٦٣٥ هـ[٢]. ولكن العلاقة تجددت في عهد الملك العادل سيف الدين بن الملك الكامل[٣]، ثم في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، فقد تبادل الطرفان الرسائل والهدايا[٤].

★★★

واستمر النزاع في البيت الأيوبي قائماً، بعد التنازل عن بيت المقدس، في سنة ٦٢٦ هـ، يقوده الملك الكامل، ويشعل أُواره، ، دون النظر إلى ما فعل من فعلة شنعاء. وقد استمر ذلك النزاع، وانعكس أثره على بيت المقدس[٥].

وكتب الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى إلى شيخ الإسلام عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم السُّلَمي المتوفي في سنة

---

(١) انظر: وفيات الأعيان ١/١٨٦، مفرج الكروب ٥/١٦٦، الوافي بالوفيات ٣/٦٣.

(٢) مفرج الكروب ٥/١٥٣ ـ ١٥٥، الذيل على الروضتين/ ١٦٦.

(٣) مفرج الكروب ٤/٢٧٨، ٢٧٩، ٥/١٧، ١٧٢، ١٧٤.

(٤) مفرج الكروب ٤/٢٤٦، مرآة الزمان ٨/٦٨٥، النجوم الزاهرة ٦/٢٨٣.

(٥) انظر: مفرج الكروب ٥/١٥٣ ـ ١٥٥، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٢، ٢٠٢ـ٢٠٥، ٢١١ ـ ٢١٥، ٢١٩ ـ ٢٢٢، ٢٢٨ ـ ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٩ ـ ٢٤١، مرآة الزمان ٨/٧١٨، ٧٢٥، ٧٢٦، الذيل على الروضتين/ ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأرد وفلسطين/ ٢٢٥، الفوائد الجلية/ ١٠٨، ١٠٩، المختصر ٣/١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، تتمة المختصر ٢/٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، النجوم الزاهرة ٦/٢٩٩، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦، شفاء القلوب/ ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢، البداية والنهاية ١٣/١٥٢، ١٥٤، السلوك ١/٢٨٧.

٦٦٠ هـ[1]، يشكو إليه «ما لقي الإسلام من إهلاك النسل والحرث . . . ، ويحثه على أن يوضح للسلطان الملك الصالح ما تعين عليه من فرض الجهاد، ويرغبه في إعلاء دين الله وإعزازه، ويحرضه على تعجل النصر الذي تكفل الله بإنجازه». ويبين الناصر داود في رسالته، أن مصيبة نزلت بالمسلمين في مدينة نابلس، قتلت فيها المشايخ، وسبيت الحلائل والصبيان، وكان ذلك اليوم يوماً «ضرب فيه الكفر بجرانه، وتبختر تيهاً بين أنصاره وأعوانه»، ويصور ما حل من فجيعة «هجمت على القلوب من أسماعها، فودت لو أنها سبقت بالمنون»، ثم يقول شعراً:

ألا ليتَ أُمي أيِّمٌ طولَ عُمْرِها ... فلم يَقْضِها ربي لمولىً ولا بَعْلِ
ويالَيتها لما قَضاها لسيدٍ ... لبيب أريبٍ طيِّب الفَرْع والأصْلِ
قضاها من اللاتي خُلِقْن عَواقراً ... فما بُشِّرَتْ يوماً بأُنثى ولا فَحلِ
ويا ليتها لما غَدَتْ بي حاملاً ... أُصيبتْ بما اجتنَّتْ عليه من الحَمْلِ
ويا ليتني لما ولِدْتُ وأصبحتْ ... تُشَدُّ إليَّ الشَّدْ قَمِيّاتُ بالرَّحْلِ
لحقتُ بأسلافي فكنتُ ضجيعهمْ ... ولم أرَ في الإسلام ما فيه من خَلِ

ويختتم رسالته هذه بقوله: «ألا وان الإسلام بدا غريباً، وسيرجع غريباً كما بدا، وتقاصرت الهمم عن إسعاده حتى لا يرى له مُسعدا»[2].

---

(١) انظر: فوات الوفيات ٢/٣٠٥ ـ ٣٥٢، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٩ ـ ٢٥٥، الذيل على الروضتين/ ٢١٦.

(٢) الفوائد الجلية/ ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، وانظر: ذيل مرآة الزمان ١/١٥٨، المختصر ٣/١٩٦، تتمة المختصر ٢/٢٨٦، ٢٨٧، شفاء القلوب/ ٣٥٨، صبح الأعشى ٤/١٧٥.

صدى الفتح القدسي الثاني في سنة ٦٣٧ هـ، في أدب الحروب الصليبية :

لم يحاول ملوك الأيوبيين خلال السنوات الإحدى عشرة، بين سنة ٦٢٦ هـ، وسنة ٦٣٧ هـ، أن يحرروا بيت المقدس ويخلصوها من الاحتلال، على الرغم من أنها بقيت غير محصنة، وأسوارها مهدمة، ولم يكن للصليبيين فيها ملك قوي، ولا جيش كبير[١]، إذ بقيت المملكة الصليبية تتخذ من عكا قاعدة لها، ولم تنقل قاعدتها إلى القدس، بعد أن تسلمها الامبراطور فردريك كما تقدم. وذلك بسبب النزاع المستمر في البيت الأيوبي، كما تقدم أيضاً، فقد شغلوا به بدلاً من أن يقوموا بواجب الجهاد المفروض على المسلمين لتخليص بلاد الإسلام، ومقدساته.

لقد كانت مدينة بيت المقدس مدينة مفتوحة غير محصنة منذ تخريبها في سنة ٦١٦ هـ، ثم تسليمها إلى الفرنج في سنة ٦٢٦ هـ، وكان للمسلمين أن يدخلوها، ويشرفوا على مقدساتهم فيها. وبقيت المدينة المقدسة على ذلك الوضع[٢].

وفي سنة ٦٣٧ هـ، انتهز الفرنج الفرصة، وأرادوا تحصين بيت المقدس، مخالفين بذلك نصوص الاتفاق بين الملك الكامل والامبراطور فردريك، وكان من شروط ذلك الاتفاق أن يبقى بيت المقدس خراباً فقد عمروا قلعة في غربية، وجعلوا براج داود واحداً من أبراجها. وكان هذا البرج قد بقي، ولم يخرب في سنة ٦١٦ هـ[٣]. وكانت البابوية، بعد انتهاء أجل الهدنة، قد دعت إلى حملة صليبية خوفاً على بيت المقدس. ولاقت تلك الحملة استجابة، ثم وصلت إلى عكا سنة ٦٣٧ هـ[٤].

---

(١) انظر: الحركة الصليبية ٢/٩٧٦، ٩٨١.

(٢) انظر: نفسه ٢/٩٧٦، ٩٨٧.

(٣) انظر: مفرج الكروب ٥/٢٤٦، الأعلاق الخطيرة لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٥، المختصر ٣/١٦٥، شفاء القلوب/ ٣٥١، السلوك ١/٢٩١، الأنس الجليل ٢/٥، المكتبة الصقلية/ ٥١٦.

(٤) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٧٠ ـ ٣٧٢، الحركة الصليبية ٢/٩٨٧.

تختلف الروايات حول تحرير بيت المقدس في سنة ٦٣٧ هـ، فقد ذكر ان الملك الناصر داود توجه إلى بيت المقدس، وحاصر القلعة، ونصب عليها المنجنيقات، واستمر محاصراً لها، وذُكر أنه حاصرها واحداً وعشرين يوماً، وطلب العدو الأمان على أن يسمح لهم بالرحيل، فمنحهم الناصر الأمان. ثم هدم القلعة، واستولى على بيت المقدس، وأعاده إلى حظيرة الإسلام[1].

لقد استطاع الملك الناصر داود أن يفعل ذلك، قبل أن يتمكن الصليبيون القادمون إلى عكا من إعداد العدة بشكل كامل، فسمعوا بما جرى، واجتمع الصليبيون القادمون، والصليبيون الذين كانوا في الشام من قبل، للتباحث حول الأمر، ولكنهم انقسموا على أنفسهم، فرأى قسم منهم أن يقصدوا مصر، ويستولوا على دمياط والاسكندرية، ثم مقايضتهما ببيت المقدس، ورأى قسم آخر أن يقصدوا دمشق، ورأى قسم ثالث أن يقصدوا صفد لاحتلالها، وتحصينها لتصبح قاعدة حصينة لهم، ومركزاً لعملياتهم ضد دمشق والقدس. ورأى قسم رابع أن يقصدوا بيت المقدس مباشرة. واستقر الرأي على قصد عسقلان لاحتلالها وهدمها، ثم قصد دمشق لاحتلالها[2].

واستعد القادة الأيوبيون لما علموا بذلك، فحصن الملك الصالح إسماعيل دمشق، وأرسل الملك العادل الثاني عسكراً كبيراً إلى غزة للدفاع عن عسقلان[3].

قصد الصليبيون عسقلان، ثم اندفع قسم منهم إلى غزة للقضاء على العسكر الإسلامي المصري، ولكنهم منوا بهزيمة ساحقة، وانسحب بقية

---

(١) انظر: مفرج الكروب ٥/٢٤٧، الأعلاق الخطيرة لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٥، المختصر ٣/١٦٥، تتمة المختصر ٢/٢٤٧، مسالك الأبصار ج ١٦ ٣/ ٥٥٣، السلوك ١/٢٩١؛ عقد الجمان للعيني ـ حوادث سنة ٦٣٧ هـ، شفاء القلوب/ ٣٥١، الأنس الجليل ٢/٥، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٧٦، ٣٧٧، الحركة الصليبية ٢/٩٨٧.

(٢) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٧٢، ٣٧٧، الحركة الصليبية ٢/٩٨.

(٣) النجوم الزاهرة ٦/٣٢٢.

الجيش الصليبي إلى يافا، فعكا[1].

ويذكر رنسيمان أن الناصر داود زحف على بيت المقدس، وأنه لم يكن لها أسباب دفاع تقيها من الهجوم، ولهذا لم يصادف الناصر داود صعوبة في إعادة المدينة إلى المسلمين. ويضيف بأن «العساكر المرابطين بالقلعة ظلوا يقاومون سبعة وعشرين يوماً، حتى نفدت مؤنهم، فأذعنوا» في السابع من كانون أول سنة ١٢٣٩م/ ٦٣٧ هـ، وحصلوا على أمان بالرحيل إلى الساحل[2]، كما تقدم.

وتذكر رواية أُخرى أن الناصر داود كان قد قسم جيشه إلى فرق، وعقد لكل منها راية، وعين جانباً من جوانب القدس لكل فرقة. وتذهب هذه الرواية إلى أنه انتظر حتى كانت ليلة عيد من أعياد العدو المحتل، وكانوا مشتغلين بالاحتفالات، فشنت القوات الإسلامية هجوماً عنيفاً، دكوا فيه الحصون، ودمروا القلعة، ثم رفعوا أعلامهم فوقها[3].

ويؤيد الملك الناصر داود نفسه الرواية الأولى، وذلك في رسالة كتبها إلى الخليفة العباسي في بغداد، بعد الفتح القدسي الثاني، في سنة ٦٣٧ هـ. يقول متحدثاً عن نفسه، مخاطباً الخليفة: «. . . فنزل العبد عليهم بطائفة من عسكره، وراوحهم، وغاداهم بالمناوشة في أصائل الحصار وبُكره»، إلى أن يقول: «ونصب عليهم المجانيق. . .، وأحدث النَّقّابون في الأسوار نقوباً سفرت نقابها، ورمى الزراقون في الستائر نيراناً هتكت حجابها». ثم يتحدث عن لجوء الفرنج إلى برج داود، وأنهم كانوا قد «سَيَّروا رسولاً يطلب لهم الأمان على نفوسهم وأموالهم». فلم يستجب لهم، ثم طلبوا الأمان ثانية، فاستجاب لهم[4].

---

(١) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦.

(٢) انظر: نفسه ٣/٣٧٦، ٣٧٧.

(٣) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٥، وانظر: السلوك ١/٢٩١، إتحاف الأخصا ـ السيوطي/ (ط) ١/٢٨٨.

(٤) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١.

ولم يلق هذا الفتح القدسي اهتماماً من عدد من المؤرخين، فلم يتحدثوا عنه في حوادث سنة ٦٣٧ هـ

إن تحـرير بيت المقـدس هذا لم يكن متوقعاً في ظل الواقع السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي الذي كان ملوك الأيوبيين سبباً فيه، بل كانوا سببه في خصوماتهم ومنازعاتهم[1].

★★★

لم يلق هذا الفتح القدسي الثاني صدى فعلياً في الأدب العربي. ويتساءل المرء: لِمَ لَمْ يلق تخليص بيت المقدس صدى يذكر في هذه المرة، ولِمَ لمْ نجد الشعراء والكُتّاب يشيدون بالملك الناصر داود، محرر بيت المقدس، في سنة ٦٣٧ هـ، ولَمْ يشيروا إلى التنازل عنه من قبل الملك الكامل؟ ولِمَ لَمْ يقل الملك الناصر داود نفسه شعراً في ذلك، ولِمَ لمْ يقل شعراؤه شعراً يخلدون به هذا الفتح القدسي الثاني؟ ولِمَ لَمْ ينشىء الكُتّاب رسائل يتحدثون فيها عن هذا الفتح؟ ومن الشعراء والكُتّاب الذين اتصلوا به، وكتبوا له، واشتغلوا بخدمته فخر القضـاة أبـوالفرج نصر الله بن هبة الله بن محمد بن عبدالباقي بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن علي، المعروف بابن بُصاقة الكاتب، المتوفى نحو سنة ٦٥٠ هـ[2]. ويذكر الملك الأمجد حسن بن الملك الناصر داود أن ابن بُصاقة أفنى في خدمة الناصر داود ووالده من قبله، «عصري الشبيبة والمشيب، وقام في دولتيهمـا مقـام الشاعر المُفْلق، والمُصْقع الخطيب، وتحمل عبء وزارة الدولتين»، ويصفه الناصر داود بأنه «البليغ الذي أعطته البلاغة أزمَّة قيادها»[3].

ويذكر أنه كان خصيصاً بالملك المعظم عيسى بن الملك العادل، ثم بابنه الملك الناصر داود. وتوجه معه إلى بغداد، في سنة ٦٣٣ هـ، كما يُذكر أن له ديوان شعر ورسائل شاهده ابن الشَعّار الموصلي بظاهر مدينة حلب، في سنة ٦٤٧ هـ، وعَلّق عنه قطعاً من شعره. وقيل إنه كان «أكتب أهل زمانه بلا مدافع،

= من أمثال سبط بن الجوزي، وابن تغري بردي، والذهبي، وأبي شامة المقدسي (انظر: مرآة الزمان ٨/٧٢٤ ـ ٧٣٢، النجوم الزاهرة ٦/٣١٥ ـ ٣١٨، دول الإسلام/ ١٤٢، الذيل على الروضتين/ ١٦١ ـ ١٦٩).

(١) انظر: صلاح الدين ـ جب/ ٢٢٣.

(٢) انظر: عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٩/٤٩ ـ ٥٤، فوات الوفيات ٤/١٨٧ ـ ١٩٢، بدائع البداثة/ ٢٧١، الفوائد الجلية/ ٤٣، ٤٤، البداية والنهاية ١٣/١٨٤، شذرات الذهب ٥/٢٥٢.

(٣) الفوائد الجلية/ ٤٥، ٥٠.

وأعرفهم بالقواعد الانشائية، وأجودهم ترسلاً، وأحسنهم عبارة، وأطولهم باعاً[1].

ومنهم مُسْند الشام تقي الدين أبومحمد إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليُسْر شاكر بن عبدالله بن محمد بن عبدالله، التنوخي، المعري، الدمشقي الكاتب، المتوفى في سنة ٦٧٢ هـ[2]. ويذكر أنه كتب الإنشاء، للناصر داود. وكان متميزاً في كتابة الإنشاء وأن له شعراً جيداً[3].

ومنهم الشيخ شمس الدين محمد بن سعد بن عبدالله بن سعد بن مفلح ابن هبة الله المقدسي، الصالحي، الحنبلي، المتوفى في سنة ٦٥٠ هـ[4]. ويذكر أنه كتب للملك الناصر داود. وكان أديباً حسن النظم والنثر، من المعروفين بالأدب والكتابة. وهو شاعر محسن، وله شعر[5].

وإذا كان هؤلاء وغيرهم من المعروفين في الكتابة والشعر، فَلِمَ لَمْ يكتبوا رسائل، أو ينشئوا شعراً حول هذا الفتح، لا سيما أن الفاتح هو الملك الناصر داود؟ ولِمَ لَمْ يطلب منهم الناصر داود أن يكتبوا رسائل ويشائر بالفتح إلى الخليفة في بغداد، وإلى سائر بلاد الإسلام، كما فعل صلاح الدين في الفتح القدسي، في سنة ٥٨٣ هـ، إذ طلب من القاضي الفاضل أن يكتب رسالة قدسية، إلى الخليفة في بغداد، كما طلب من العماد الأصفهاني أن يكتب كتب البشرى بالفتح، كما تقدم؟ هل اكتفى الملك الناصر داود بكتابة الرسالة القدسية التي كتبها بنفسه، وأرسلها إلى الخليفة في بغداد؟ وهل كتبت رسائل وكتب بشرى، ولم تصل إلينا؟ وهل قيل شعر يخلد الحدث، ولم يصل إلينا أيضاً؟

---

(١) عقود الجمان ٩/ ٥٠.

(٢، ٣) انظر: فوات الوفيات ١/ ١٧٠ ـ ١٧٢، النجوم الزاهرة ٧/ ٢٤٤، ذيل مرآة الزمان ٣/ ٣٨. المنهل الصافي ٢/ ٣٨٣ ـ ٣٨٦، الدليل الشافي ١/ ١٢٢، البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٨، شذرات الذهب ٥/ ٣٣٨.

(٤، ٥) انظر: فوات الوفيات ٣/ ٣٥٨، الوافي بالوفيات ٣/ ٩١، مراة الزمان/ ٥٢٣، النجوم الزاهرة ٧/ ٢٦ ـ ٢٧، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٢٤٨، شذرات الذهب ٥/ ٢٥١.

ولعل الشعراء والكُتّاب الذين كانوا يعيشون في ظل الملوك الأيوبيين الآخرين، في مصر والشام، ممن كانوا يعادون الملك الناصر داود، كانوا يخشون من القول في فتح تم على يدي ملك كان يعاديه ملوك أيوبيون آخرون، في مصر والشام.

يذكر المنهاجي السيوطي أن الناصر داود «أمر بكتابة البشائر إلى سائر الممالك بهذا الفتح المبين، والنصر العزيز، فكتب، وعادت الأجوبة عنها»[1].

★★★

إن كل ما وصل إلينا مما قيل من شعر في هذا الفتح القدسي، يقتصر على ثلاثة أبيات قالها الشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح، المتوفى سنة ٦٥٠ هـ، وقيل ٦٤٩ هـ[2]. وقيل إنها «قصيدة طويلة مشتملة على أبيات كثيرة»[3]، ولم يصل إلينا منها سوى ثلاثة أبيات. وقد نُسبت هذه القصيدة إلى ابن نباتة المصري[4]، وهي ليست له، فقد ولد ابن نباتة هذا في سنة ٦٨٦ هـ[5]، بينما قال ابن مطروح هذه الأبيات في سنة ٦٣٧ هـ.

كان ابن مطروح قد صحب محيي الدين بن الجوزي، وهما يسعيان في سبيل الصلح بين ملوك البيت الأيوبي المتنازعين، ثم خاف ابن مطروح على نفسه عندما سمع بما حدث للملك الصالح نجم الدين أيوب[6]، واستجار بمحيي الدين بن الجوزي، فأجاره. ثم سافرا للإصلاح بين الملك العادل

(١) اتحاف الأخصا ـ المنهاجي السيوطي ـ خ/٨٢، (ط) ١/٢٨٩، إتحاف الأخصا ـ المنسوب إلى ابن حجر الهيثمي/ ٢٤٢، إتحاف الأخصا المنسوب إلى ابن عبدالظاهر/ ٧٨.

(٢) انظر: وفيات الأعيان ٦/٢٥٨ ـ ٢٦٦، مرآة الزمان ٨/٧٨٨ ـ ٧٨٩، ذيل مرآة الزمان ١/١٩٧ ـ ٢٢٠، الروضتين ٢/٢٠٦، الذيل على الروضتين/ ١٨٧، مفرج الكروب ٥/٢٠٩، ٢١٩، ٢٤٥ ـ ٢٤٧، ٢٥١، النجوم الزاهرة ٧/٢٧ ـ ٢٩، عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ١٠/٨، عيون التواريخ ٢٠/١٢، ٣٨، ٤٥، ٥٤ ـ ٦١، ٤٠١، المختصر ٣/١٧٦، تتمة المختصر ٢/٢٧١ ـ ٢٧٣، البداية والنهاية ١٣/١٨٢، المقتطف من أزاهر الظرف/ ٩٧، ١١٤، ١١٨، ١٤٣، ٢٣٠، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٤٠١.

(٣، ٤) اتحاف الأخصا ـ المنهاجي السيوطي (ط) ١/٢٨٩.

(٥) انظر: الدرر الكامنة ٤/٢٩١، حسن المحاضرة ١/٥٧١، ابن نباتة المصري/ ١٠٦ وما بعدها.

(٦) انظر: مفرج الكروب ٥/٢١١ ـ ٢١٥، ٢٢٨ ـ ٢٣٠، ٣٣٢، ٢٣٤. مرآة الزمان ٨/٧٢٥، ٧٢٦، =

والملك الصالح إسماعيل، وبين الملك الناصر داود. واتفق حدوث الفتح القدسي الثاني عند وصول ابن الجوزي وابن مطروح إلى الملك الناصر داود، «فقال جمال الدين يمدح الملك الناصر داود، ويذكر مضاهاته بفتح القدس لعمه الملك الناصر صلاح الدين يوسف، مع اشتراكهما في اللقب والفعل، وهو معنى لطيف مليح»، كما يقول ابن واصل الحموي[1]. يقول ابن مطروح[2]:

المسجدُ الأقصى له عادةٌ ... سارتْ فَصارتْ مثلاً سائرا
إذا غَدا للشرك مستوطنا ... أن يبعثَ الله له ناصرا
فَناصرٌ طَهرَّه أولاً ... وناصرٌ طهَرَّه آخرا

★★★

ويشيد به ابنه الملك الأمجد مجد الدين أبومحمد الحسن بن الملك الناصر داود[3]، ويصفه بأنه «السلطان الملك الناصر. . . صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين، ناصر الإسلام وحصنه، ذخر الإمام وَرُكنهُ، مؤيدُ الملة وعزُّها، غياث الأمة وكَنْزُها، كهفُ الشريعة وحسامُها». ويسترسل الملك الأمجد في إشادته بوالده محرر بيت المقدس، فيصوره موضحاً للحق، وممهداً له، ومظهراً للعدل، ومحيياً للعلوم، وأنه «جامعُ كلمة الايمان، ورافِعُها، مُفرِّقُ كلمة الكفر وواضِعُها». ويشيد به في مكارمه، ويفضله على غيره من الملوك الآخرين[4].

ويصوره صاحب مواقف مشهودة في الإسلام، يقول: «. . . لا جرم أن له في الإسلام مواقف مشهودة، ومشاهد تعددت فهي غير معدودة، جعل دأبه المحاماة عن الإسلام وأهله، ولم يتخذ إلا رؤوس المشركين، أغماداً لرمحه

= المختصر ٣/١٦٤، ١٦٥، تتمة المختصر ٢/٢٤٦، النجوم الزاهرة ٦/٣٠٦، شفاء القلوب/ ٣٧١، ٣٧٢، السلوك ١/٢٨٧.

(١) مفرج الكروب ٥/٢٤٧.

(٢) الفوائد الجلية/ ٢٣، مفرج الكروب ٥/٢٤٧، مرآة الزمان ٨/٧٨٩، شفاء القلوب/ ٣٥١.

(٣) انظر: الفوائد الجلية/ ٢.

(٤) نفسه/ ٦، ٧. وانظر: ٢١، ٢٢.

ونَصْله. ونصر دين الله، فارتضاه له ناصرا، وطَهَّرَ به وبسميه بيته المقدس أولاً وآخرا»[1]. ثم يروي الأمجد أبيات الشاعر جمال الدين بن مطروح الآنفة الذكر.

★★★

وكتب الملك الناصر داود نفسه رسالة حول الفتح القدسي الثاني، وأرسلها إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، في بغداد، يبشره بهذا الفتح، وهو الفتح الناصري الداودي، كما يصفه مجير الدين العُلَيمي الحنبلي، نسبة إلى الفاتح نفسه الملك الناصر داود[2].

وفي هذه الرسالة يبشر الملك الناصر داود الخليفة العباسي بفتح بيت المقدس وتطهيره من العدو الصليبي. ويستهلها بالدعاء للديوان النبوي في بغداد، يقول في دعائه رابطاً ذلك بالفتح: «وفتح بعزمه مُسْتغْلَق الحصون، وأذاع ببركته سر النصر المصون، وأطلع البشائر ببابه يانعة الثمار، ناضرة الغصون»[3].

ويتحدث الملك الناصر عن الفتح القدسي، ويبين أن الهدنة بين المسلمين والصليبيين، منذ عهد الملك الكامل بن العادل، قد انتهى أجلها، وأن العدو الصليبي كان قد استغل الفرصة، وعمر القلعة والبرج، في أثناء الهدنة، كما يبدو في قوله: «وينهي أنه طالع المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها، وانفساخ عُقْدتها، وعند ذلك أخلى الفرنج ـ خذلهم الله ـ القدس الشريف من سكانه، وانتقل كل منهم عن وطنه إلى ما صيّره من أوطانه». ثم يبين أنه قد أقام قائد من قوادهم (أو كند من كُنُودهم) في بيت المقدس، ويصفه بأنه «فارس مشهور من فرسانهم، وطاغية يُذْكر من شجعانهم». وكان ذلك الفارس قد «عَمَّر قلعة القدس، في مدة الهدنة، وحَصَّنها، وملأها بالعُدَد،

---

(١) الفوائد الجلية/ ٢٢.

(٢) الأنس الجليل ٢/٥.

(٣) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٦.

والآلات، وشَحنها، ووصلها ببرج يقال له «برج داود»[1]. ثم يتحدث الملك الناصر عن تحصين القلعة والبرج تحصيناً قوياً، وسترهما «بالستائر المخلَّدة، والخشب المسنَّدة، والعَمَد الممددة»[2]. وقد كان هذا مخالفاً لنصوص المعاهدة بين المسلمين والفرنج، كما تقدم، وكأن الفرنج بذلك قد «أوقدوا للحرب نار الشيطان الموصدة، لا بل نار الله الموقدة» كما يقول الملك الناصر داود نفسه[3]. ولهذا نازل الملك الناصر بيت المقدس، وحاصره، وطاول في حصاره، راجياً أن يسلم الفرنج المدينة المقدسة دون إراقة دم، ودون «قتل مُوَحِّدٍ يُفتدى من المشركين بأمم». ولكن الفرنج «تجمعوا على الضلال، وتألبوا، وحادوا عن طريق الرشاد، وتنكبوا»، فقاتلهم المسلمون بقيادة الملك الناصر داود[4].

ويصور الملك الناصر كيف أن الفرنج أرادوا الممانعة، وعمدوا إلى المصابرة، وظنوا أن حصونهم، في القلعة والبرج، مانعتهم من كل سوء، ولكن الله أتاهم من حيث لم يحتسبوا، وجزاهم بما كسبوا، ونصر المسلمين، ومَكَّنهم، وعادت أعلام الإسلام الشريفة لترتفع في بيت المقدس، كما يبدو في قول الناصر داود معبراً عن إحساسه بالنصر، ومعبراً عن إحساسات المسلمين بذلك أيضاً: «. . . وطلعت على الأسوار المنيفة من الأعلام الشريفة الراية التي أعادت بسناها آية الليل، لكن من آياته النهار إبصارا، وأعظم من النيّرين الشمس والقمر، ضياء وأبْدارا»[5].

ويتحدث الناصر داود عن استيلائه على القلعة، ويصورها وقد «تبرجت له أبراجها المصونة وتجلت، ومدت له أرضها، فألقت ما فيها وتخلت»[6]. ولهذا يصور العدو الصليبي قد لجأ إلى برج داود، بعد استيلاء المسلمين على القلعة،

(١) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢، ٣) نفسه/ ٢٢٨.

(٤) نفسه/ ٢٢٨، ٢٢٩.

(٥) نفسه/ ٢٢٩، ٢٣٠.

(٦) نفسه/ ٢٣٠.

راجين حقن دمائهم، وسلامتهم. ولكنهم «دخلوا منه سجناً لا حصنا، ونزلوا به قبراً عَجَّلَ لهم، وهم في قيد الحياة، دفنا» كما يقول الناصر داود نفسه مصوراً المصير الذي آل إليه العدو الصليبي[1].

ويصور الناصر النصر الذي أحرزه المسلمون، والآثار التي ترتبت عليه، فيقول: «... فافترق شمل تثليث الشرك باجتماع ثلاثة التوحيد، وعطف الله على حزب الايمان بالنصر، وعاد على حزب الطغيان بالكسر، وأضحى الباطل وقد عاوده ذله، ورد الله الحق إلى نصابه، واليه يرجع الأمر كله[2].

ويربط بين المقدسات الإسلامية: المسجد الأقصى في بيت المقدس، والمسجد الحرام في مكة المكرمة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، ويصور اجتماع «شمل المساجد الثلاثة بما منح الله من التأييد»[3].

ويربط بين هذا الفتح القدسي، والفتح القدسي السابق مشيداً بالفتح والفاتح، مخاطباً الخليفة: «والعبد يظن أن الله تعالى ما أعاد هذا البيت إلى العدو بعد فتوحه...، إلا ليُسَطِّر فتحه في سيرة مولانا أمير المؤمنين، كما سَطَّره في سيرة أمير المؤمنين جده»[4]. وهو ينهج في ربطه بين المقدسات من ناحية، وربطه بين الفتوح من ناحية أخرى نهج الشعراء والكُتّاب في حديثهم عن الفتح القدسي، في سنة ٥٨٣ هـ، كما تقدم.

ويتحدث الناصر عن تردده في هدم القلعة أو بقائها معقلاً في بيت المقدس، كما يبدو في قوله مخاطباً الخليفة: «والعبد متردد بين أن يجعل عين هذه القلعة بالهدم أثراً، وعيانها بالردم خبرا، ليخمد سرر شرها، ويؤمن غائلة أمرها، وينقطع رجاء الكافر من نزالها وحصرها، وبين أن يبقيها معقلاً لهذا البيت الشريف، وموئلاً للمجاورين فيه من طائفة الدين الحنيف». ثم هدم القلعة والبرج، وجعل البرج «مسجداً للركوع والسجود، لا معقلاً للجموع والحشود، ومعبداً يلتزم بمزاره، لا حصناً يعتصم بأسواره»[5].

---

(١) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣٠.

(٢، ٣، ٤) نفسه/ ٢٣١. (٥) نفسه/ ٢٣٢.

ويصور البرج بأنه كان برجاً «عظيم المقدار والحجم»، وهو في منعته يباري الجبل، وفي رفعته يُباري النجم، ويصوره شاهقاً «ينقلب البصر عن نظره خاسئاً وهو حسير»، وهو حصين جداً، فقد «بني بالصُّفّاح والعمد، وتأنق بانوه في إحكامه فما طال عليهم الأمد». ويصوره مبالغاً في وصف حصانته كما يبدو في قوله مستلهما من القرآن الكريم: «لو حضره يأجوج ومأجوج ما استطاعوا أن يظهروه، ولا استطاعوا له نقبا، فكأن الله قد ألان لداود الصخر، كما ألان له الحديد في بنيانه، أو كأنه استعان في إتقانه بجن سليمانه»[1].

ويلاحظ أن الكاتب الملك الناصر داود، يركز على الحديث عن الحدث ذاته، وهو الفتح القدسي الثاني. ولا شك أن حديثه عن الفتح، يمثل إشادة بمن قاد إلى النصر والفتح. وعندما يتحدث الكاتب عن نفسه، يشيد بها رأياً وشجاعة، ويصور الجيش الإسلامي مصابراً شجاعاً في معترك الوغى، ومنهم النقابون، والزراقون. ويتحدث عن أسلحة الجيش الإسلامي: النبال، والنصال، والمنجنيقات، وهي منجنيقات «تزاحم الحصون بمناكبها»، وهي إذا قاتلت بلدة «أخذت بكظمها، وقضت برغمها، وأنزلتها على حكمها» كما يقول الكاتب. ويصورها وقد «سحرت أعينهم، إلا أن الله ما أبطل سحر عصيها، ولا سحر حبالها»[2].

ويصور الناصر العدو الصليبي، فيشيد بهم من ناحية، ويُعرّض بهم من ناحية أخرى، كما يبدو في قوله مصوراً جيش العدو، فهم «طائفة من شجعان الأبطال، وأبطال الشجعان، ومن المشهورين بالشدة والبأس إذا التقى الجمعان»، ولكنهم أهل غي وضلال، وقد «وطنوا على القتل نفوسهم، يتهافتون على الحرب تهافت الفراش...». ويصورهم بعد الهزيمة التي منوا بها، وقد مَكّن الله[1] ايدي المؤمنين من نواصيهم، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم[3]، وقد «ضربت عليهم الذلة والمسكنة»، ويصورهم أهل

(١) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) نفسه/ ٢٢٨، ٢٢٩.

(٣) الصياصي: القلاع.

الشرك، والطغيان، والباطل[1].

ويتحدث الناصر عن الخليفة، ويبدي ارتباطه به، وتقديره له، ويشيد به، ثم يتحدث عن شوقه إلى الخدمة في ظله، كما يتحدث عن طاعته وولائه له. ولكنه يبالغ حين يقول: «العبد يُقبِّل العتبة الشريفة التي تسر بتقبيلها القلوب، وتقر بتقريبها العيون، وتود لو اكتحلت بإثمد ترابها الجفون»[2].

(١) الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣١.

(٢) نفسه/ ٢٢٦، وانظر: ٢٣٢، ٢٣٣.

التنازل عن بيت المقدس ثانية في سنة ٦٤١ هـ:

في أواخر شهر رمضان سنة ٦٣٧ هـ، سار الملك الناصر داود، والملك الصالح نجم الدين أيوب، بعد الإفراج عنه، إذ كان معتقلاً لدى الناصر داود في الكرك، إلى القدس، «واجتمعا عند الصخرة وتحالفا، فيقال إنهما اتفقا على أن تكون الديار المصرية للملك الصالح نجم الدين أيوب، والشام والشرق للملك الناصر»[1]. وهذا الاجتماع عند الصخرة المشرفة يدل على المكانة التي كانت مدينة بيت المقدس تتبوأها في نفوس المسلمين.

ولما تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب الأمر في مصر، في ذي القعدة من هذه السنة، بطلب من الأمراء فيها، وكان قد توجه إلى مصر مع الناصر داود، تحلل مما اتفق عليه، وتأول أنه حلف مكرهاً. ثم عاد الناصر إلى بلاده. وغير تحالفه، فاتفق مع ملوك الأيوبيين بالشام الذين كانوا يناوئون الملك الصالح نجم الدين، وتم ذلك في سنة ٦٣٨ هـ[2]. واشتد النزاع في البيت الأيوبي، ففي سنة

(١) مفرج الكروب ٥/٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، وانظر: المختصر ٣/١٦٦، تتمة المختصر ٢/٢٤٧، شفاء القلوب/ ٣٧٣، السلوك ١/٢٩٣، ٢٩٤.

(٢) مفرج الكروب ٥/٢٥٩ ـ ٢٦٢، ٢٦٤ ـ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٨، وانظر: المختصر ٣/١٦٦، ١٧٤، تتمة المختصر ٢/٢٤٧، دول الإسلام ٢/١٤٢، مسالك الأبصار ج ١٦ ١/٣ ٥٣٤، شفاء القلوب/ ٣٧٤، السلوك ١/٢٩٦ ـ ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، الأنس الجليل ٢/٥.

وتجدر الإشارة إلى ما يذكره عز الدين بن شداد، إذ يذكر أن الملك الصالح اسماعيل أعطى بيت المقدس للفرنج فيما أعطاهم من البلاد، في سنة٦٣٨هـ، يقول: «ولم يزل القدس في يد الملك الناصر داود إلى أن اتفق مع الملك الصالح اسماعيل، صاحب دمشق، والملك المنصور ابراهيم، صاحب حمص، على مصالحة الفرنج ،ليعينوهم على قتال الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر، وأعطوهم صفد، والشقيف، والقدس، وغيرها»، في السنة المذكورة. و«دخل الفرنج القدس، ورفعوا الصليب على الصخرة، وأخرجوا من فيه من المجاورين إلى الخليل» (الأعلاق الخطيرة ـ لبنان ولأردن وفلسطين/ ١٤٧، ٢٣٤).

ولكن العديد من المؤرخين، لا يتحدثون عن تسليم بيت المقدس في سنة ٦٣٨ هـ. ويقتصرون على الحديث عن تسليم الشقيف وصفد في هذه السنة (انظر: ذيل الروضتين/ ١٧٠، المختصر ٣/١٦٩، تتمة المختصر ٢/٢٥٠، دول الإسلام ٢/١٤٣، النجوم ٦/٣٣٨، المنهل الصافي ٢/٤٢١، البداية والنهاية ١٣/١٥٥).

٦٣٩ هـ، التقى عسكر الملك الصالح أيوب، وعسكر الملك الناصر داود، في جبال القدس، واقتتلا، وهُزِم عسكر الملك الصالح[1]. وقد أدى هذا النزاع بين الأيوبيين إلى الاتصال بالفرنج، والاستعانة بهم، فقد اتصل الملك الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، بالفرنج، وطلب مساعدتهم ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاشترطوا عليه أن يسلمهم الشقيف، وصفد، فاستجاب إلى طلبهم، وسلمهم الحصنين[2]. واشتد إنكار المسلمين لهذه الفعلة الشنيعة، وأنكرها العلماء، ونددوا بالصالح اسماعيل، ومنهم الشيخ عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام، خطيب جامع دمشق، والشيخ جمال الدين أبوعمرو بن الحاجب، وأكثرا من التشنيع عليه، فعزل الشيخ عزالدين، ومنعه من الافتاء، وحبسه، وحبس ابن الحاجب، ثم أمرهما بملازمة بيتهما، واضطرا إلى مغادرة دمشق، فغادرها عزالدين إلى مصر، وغادرها ابن الحاجب إلى الكرك، ثم إلى مصر[3].

= ويذكر المقريزي أن الصالح إسماعيل أعطى الفرنج صفد، والشقيف، كما أعطاهم مناصفة صيدا، وطبرية وأعمالها، وجبل عاملة، وسائر بلاد الساحل، في سنة ٦٣٨ هـ. ويذكر في حوادث السنة ذاتها أن الصالح إسماعيل استنجد بالفرنج «على أن يعطيهم جميع ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف» (السلوك ١/٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣٠٩).

ويتحدث ابن واصل عن تسليم حصني الشقيف وصفد في سنة ٦٣٩ هـ، وليس في سنة ٦٣٨ هـ. ولم يتحدث عن تسليم بيت المقدس في هاتين السنتين. (انظر: مفرج الكروب ٥/٢٧٥ ـ ٣٠٨).

ويذكر سبط بن الجوزي، في حوادث سنة ٦٣٩ هـ، أن الملك الناصر داود كان في القدس، وأقام فترة هناك (انظر: مرآة الزمان ٨/٧٣٦، البداية والنهاية ١٣/١٥٧).

ويذكر أبوشامة المقدسي، في حوادث سنة ٦٣٩ هـ، أن «الأرض المقدسة» كانت تابعة للملك الناصر داود آنذاك (انظر: ذيل الروضتين/ ١٧١).

(١) مفرج الكروب ٥/٣٠٠، ٣٠١، السلوك ١/٣٠٩.

(٢) مفرج الكروب ٥/٣٠١، ٣٠٢، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/٣٤٧، وانظر: مرآة الزمان ٨/٧٤٥، ذيل الروضتين/ ١٧٠، النجوم الزاهرة ٦/٣٣٨، تتمة المختصر ٢/٢٥٠، دول الإسلام ٢/١٤٣، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ١٤٧، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، البداية والنهاية ١٣/١٥٥، الأنس الجليل ٢/٦، شذرات الذهب ٥/١٨٩، صلاح الدين ـ جب/ ٢٢٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٧٨.

(٣) مفرج الكروب ٥/٣٠٢، ٣٠٣، الذيل على الروضتين/ ١٧٠، مرآة الزمان ٨/٧٣٢، المختصر ٣/١٦٩، =

لقد أدى النزاع في البيت الأيوبي بين الصالح نجم الدين أيوب، وعمه الصالح عماد الدين إسماعيل ومحالفيه من الأيوبيين، إلى التفريط ببيت المقدس، فكان الصالح أيوب قد استعان بالخوارزمية، فاستعان الصالح اسماعيل ومحالفوه بالفرنج، واتفق معهم على «تسليم البيت المقدس إليهم، على أن يكون الحرم بما فيه من المزارات لهم، وعلى تسليم طبرية، وعسقلان، وكوكب إليهم، وأن يأذنوا لهم في عمارتها، فتسلم الفرنج ذلك كله، وعمروا قلعتي طبرية وعسقلان، وحصنوهما. وأخذ بيت الاسبتار كوكب، وعزموا على عمارتها. ودخل الفرنج القدس، وتسلموا الصخرة المقدسة، والأقصى، وما في الحرم الشريف من المزارات»، كما يذكر ابن واصل في حوادث سنة ٦٤١ هـ. وفي هذه السنة دخل ابن واصل بيت المقدس، ورأى فيه «الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة، وعليها قناني الخمر». ورأى جرساً معلقاً بالأقصى. وقد «أبطل بالحرم الشريف الأذان والإقامة»[1]، فتصور!

ويعقب مجير الدين العُليمي الحنبلي على ما فعله الناصر داود، وكان قد حرر بيت المقدس في سنة ٦٣٧ هـ، كما تقدم، ثم كان ممن تنازلوا عنه، وفرطوا به، يقول: «وكان الناصر داود فتح بيت المقدس، في سنة ٦٣٧ هـ، ثم فعل هذه الفعلة القبيحة، وقد انتقم الله منه فيما بعد، فنعوذ بالله من سوء الخاتمة، والضلال بعد الهداية»[2].

= تتمة المختصر ٢/١٧١، دول الإسلام ٢/١٤٣، ١٤٤، النجوم الزاهرة ٦/٣٣٨، ٣٤٦، ٣٤٧، البداية والنهاية ١٣/١٥٥، السلوك ١/٣٠٤، المنهل الصافي ٢/٤٢١، ٤٢٢.

(١) مفرج الكروب ٥/٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، وانظر: مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/٧٤٥، ٧٤٦، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣٤، المختصر ٣/١٧٢، تتمة المختصر ٢/٢٥٣، ٢٥٤، النجوم الزاهرة ٦/٣٢٢، شفاء القلوب/ ٣٢٥، ٣٧٥، ٣٧٦، السلوك ١/٣١٥، نزهة الأنام ـ حوادث سنة ٦٤١ هـ، الأنس الجليل ٢/٦، ٧ وانظر: صلاح الدين ـ جب/ ٢٢٦، ٢٢٧، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٨٩.

(٢) الأنس الجليل ٢/٦، وانظر: ٩، ١٠.

الفتح القدسي الثالث:

لقد استنجد الصالح نجم الدين أيوب بالخوارزمية، فاستجابوا، وساروا في أوائل سنة ٦٤٢ هـ، ويُذكر أنه لما سمع الملك الناصر بمسيرهم، عاد من القدس إلى الكرك، واعتصم به. وخرج الفرنج الذين كانوا في بيت المقدس، في ربيع الأول من هذه السنة، عندما سمعوا باقتراب الخوارزمية[١].

استولى الخوارزميون على طبرية، واجتازوا نابلس، ثم اتجهوا جنوباً نحو بيت المقدس. ولما عرف الفرنج ذلك، أدركوا الأخطار التي تحيق بهم، وعمل بطريرك بيت المقدس، ومقدما الداوية والاسبتارية على تعزيز الحامية هناك، غير أن الفرنج لم يجرؤوا على البقاء هناك. وصل الخوارزميون بيت المقدس، وهاجموه، ودخلوه، ويذكر أنهم اقتحموا المدينة في سنة ٦٤٢ هـ الموافق ١١ يوليو سنة ١٢٤٤ م[٢].

ويذكر أن الفرنج في بيت المقدس، كانوا قد استنجدوا بالفرنج في أنطاكية، وطرابلس، وعكا، وقبرص، ولكن دون جدوى، ولم تصل نجدات من الفرنج. ثم استغاثوا بالملك الناصر داود، وطلبوا منه تأمين خروجهم، فتدخل، وأعطوا الأمان على أن يسلموا القلعة. ويُذكر أنه خرج ستة آلاف منهم، وقصدوا يافا، ولكن قُضي على أكثرهم قبل وصولهم إليها.

وهكذا خرجت المدينة المقدسة من أيدي الفرنج، وعادت إلى الإسلام والمسلمين[٣].

ويوصف هذا الفتح بالفتح الصلاحي النجمي، كما يقول مجير الدين

---

(١) مفرج الكروب ٥/٣٣٦، ٣٣٧، وانظر: الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣٤، النجوم الزاهرة ٦/٢٢٣.

(٢) مفرج الكروب ٥/٣٣٧، الأعلاق الخطيرة ـ لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣٤، ٢٣٥، السلوك ١/٣١٦، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٣/٣٩١ ـ ٣٩٣.

(٣) انظر: صلاح الدين ـ جب/ ٢٢٧، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان، ٣/٣٩٢، ٣٩٣، ٤٦٦، الحركة الصليبية ٢/٩٩٧، ٩٩٨.

العُليمي الحنبلي، نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب[1]، إذ تم الفتح في عهده.

(١) الأنس الجليل ٢/٨.